أحلام المطر

أحلام المطر

روان عبد الكريم

رواية

تصميم الغلاف : علاء محمود

رقم الإيداع :٢٠١٤/٢٩٠٨

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٢٧٥-٣

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ، ٢٠١٤م

أحلام المطر

روان عبد الكريم

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

أحلام المطر لكل من قاتل ضد طاغية، وحافظ على هويته.. أهديها لرجال سوريا الأحرار، ونساء سوريا الحرائر في الرستن– درعا–حمص–حلب–حماة–ريف دمشق.. أهديها كل سوري ثار.. لروح حمزة الخطيب.

وأخيرا أهديها لصديقي العزيز أ.ماهر طلبة، الذي شجعني كثيرا لأخرج هذا العمل للنور، وسهر على مراجعته، آملة أن يمتعكم

روان عبد الكريم

الطاغية

حينما يشتد العطش، ويلفحنا القيظ، وتتشقق الأرض في أسى وهى تبتهل للسماء في تضرع أن تهطل زخات المطر السحري؛ فتضربها رياح الجبال القاسية ؛ كنت أقف على هذه الأرض المحتضرة، أهفو لماء المطر يبلل حياتي اليابسة البائسة، أستجدي الدموع كي تغسل وجنتي الجافة... أفيق من أحلامي على يدٍ قاسية تهزني في خشونة، وصوت جهوري يقول في نفاذ صبر-:

- ناتالي ، ناتالي استيقظي أفتح عيني في كسل، وأنظر للحديقة الغناء، الموشاة بأطايب الزهر؛ الغارقة بظلال أشجار البرتقال والكرز، والمترفة بالنجيل الأخضر، وقد بلله مطر الصباح، فانتعش قليلًا، ثم أتذكر الرجل الغاضب الواقف كالنسر العجوز فوق رأسي، وهو يردف في تأنيب

- إلى متى يستمر إهمالك هذا أيتها الصغيرة العابثة؟ أنظر إليه بلا مبالاة، وقد تكور جسدي فوق الأريكة الوثيرة، وأتجاهله في تعمد، ثم أشيح بنظري إلى المسبح المائي الكبير، وثمة بجعات شقية غالية تلهو فيه في سعادة.. وأتساءل هل هن سعيدات بهذا الأسر؟

يجلس بجانبي، وقد تملكه الحنق (الغضب) من تجاهلي لكلماته، ويربت على شعري القصير، وهو ينظر لجسدي النحيل، ويزفر في عمق:

– فيما أنت شاردة؟...

ويردف في حنو أكرهه:

– ناتالي يا صغيرتي.. إنك في السادسة عشر من عمرك، ولست بطفلة، لتغفين هكذا في الحديقة.

أرفض الرد عليه، وأشيح ببصري مرة أخرى.. فيتحول حديثه إلى صراخ:

– أيتها الفتاة الجاحدة، أظهري قليلًا من الاحترام لجدك العجوز.

ثم يخبو صوته ويردف:

– "ناتالي.. انسِ حياتك الماضية، وانظري لنفسك الآن.. إنك حفيدة غسان خوري، أغنى أغنياء بيروت "عند هذا يجتاحني الألم، وأذكر أبي، فأهب واقفة في انتصاب وتحدٍ، وأنا أقول:
– كف عن مناداتي بناتالي هذه..

وأقول ضاغطة على الحروف

– اسمى" شادن سميح محمود؛ إن عام من الأسر لديك أيها الجد الزائف لن يغير شيئا من هويتي. هل تفهم؟ لن يغير شيئا؛ لن يغير شيئا.

يسود وجهه الصخري، ثم يجلس الرجل في هدوء وغطرسة وهو ينظر في ساعته.

- إنها السابعة مساءً.. نصف ساعة لتحضير نفسك للعشاء .. كافية.. ؛ لدينا ضيوف مهمون من وزارة التجارة؛ لدى وصيفتك فكرة عما سترتدين.

وأردف بنبرة قوية قاسية، قبل أن يمضي:

- وأرجو أن تلتزمي اللياقة، وإلا تعرضتِ للعقاب.

نهض هو لا يلوي على شيء، وتركني هذا الجبار وأنا أرتعش.. وأتذكر مأساتي، وكيف اختطفني من حضن أبي، حيث كنا نعيش في بيتنا الصغير في القاهرة، مع جدتي الحنون، التي اعتبرتها أمي

وذات صباح كئيب، كنت في رحلة مع المدرسة للمتحف المصري، أتجول بين تماثيل عصر بناة الأهرام، ثم أحسست بالأرض تميد تحت قدمي، ولم أستيقظ إلا لأجد نفسي في هذا المكان؛ بين جدران قصر منيف، تحوطه الجبال الشاهقة، وتتشعب ممراته كقصر التيه.. ويمتلئ بالخدم الغادين الصامتين أبدا... ورجال الحراسة يتبعونني كظلي؛ بعد أن لبثت شهورًا أصرخ للشيخ المخبول أني لست هذه الناتالي حفيدته، وهو قد صنع من صخر جلمودي، لا يهز صراخي فيه شعرة

في الصباح، تأتي مدرسة الفرنسية، التي أمقتها تمامًا، ثم مدرسة الفيزياء والكيمياء،وبعدها الرياضيات.

كانوا موجهين لتعليمي فقط، ولم يسمح لهم بالرد على أسئلة شخصية، أو تتعلق بكينونتي ولقد تمردت على هذه التماثيل القاسية،

وقاومت وحاربت بكل قوتي وجهدي، ولكني تجرعت أنواع رهيبة من العقاب، فقد حرمت مرات من الطعام، وحوصرت في غرفتي، مثل الأسرى، في ظلمة مخيفة، ولا زلت أذكر أني حاولت الهرب مرة، فألقاني الحراس بأمر من هذا الجد المخبول في المسبح، وأنا لا أجيد السباحة، حتى قاربت على الغرق.

كان كل يوم يمر يكسر الكثير من إرادتي؛ كنت كمن يضرب هامته في الصخر بلا فائدة..لم تعد لي قدرة على المقاومة..عزيمتي تخبو يومًا بعد يوم.

وهكذا تبعته في خضوع عبر الباب الحديدي للقصر المنيف، المزخرف بأيقونات إغريقية غريبة حتى السلم الرخامي، حيث وقفت أشاهده يدلف عبر باب مكتبه الأثري، وهو يلقى نظرة غريبة في اتجاهي، ويقول:

– في السابعة والنصف أراك.

دلفت عبر حجرتي، لأجد جانو –الوصيفة كما يطلق عليها العجوز– في انتظاري، بلباسها الأخضر الفيرروزي، الموشى بتطريزات راقية من اللون الأحمر الياقوتي، الزي المميز لخدم الدرجة الأولى في القصر، فالرمادي لخدم الدرجة الثالثة، وهم المسئولون عن التنظيف، والأزرق لخدم الدرجة الثانية ويختصون بالطبخ وتقديم الطعام.

وهكذا الناس في هذا المكان مرتبات، يشذ عن هذه القاعدة "جو" عامل الحديقة، يلبس ما يحلو له، وهو مشاكس بطبعه. لو إنه أخرس، لصار لي حليفًا ونصيرًا، فهو الوحيد الذي يتعامل معي

بإنسانية في الضيعة، كما يطلقون عليها، وكثيرا ما أتحفني بزهرة أو فاكهة غريبة الطعم حلوة المذاق، أتقبلها منه شاكرة، و.......سيدتي حان وقت الاستحمام، والسيد الكبير نافد الصبر. يجب أن تكوني جاهزة في الموعد – قالت جانو – لتقطع أفكاري التي صرت أغوص فيها كهروب من واقع أمقته..

نظرت إليها ببرود، وأنا أدخل الحمام، وهي في أثري تتبعني في صمت، رغم تحذيري لها في كل مرة أني أجيد الاستحمام بنفسي منذ كنت في الرابعة، ولا أحتاج لرفقة في هذا المكان الخاص؛ فلم أجد بدًا من دفعها بخشونة، لتقع في الحجرة، وتشهق مذهولة وأنا أقفل باب الحمام عليّ، ثم أضرب يدي في الحائط، وأبكي، وأغتسل بعدها بهدوء

الحفلة

في السابعة والنصف وخمس دقائق ،كنت أقف في بهو القصر، أرتدي فستانا عسلي اللون، ذا بريق خافت، وقد عقصت شعري القصير إلى الخلف، ورفضت أن أرتدي أي شيء من المجوهرات الثمينة، التي يصر العجوز على إهدائها إليّ، ولم أضع سوى قرطي الذهبي الصغير، هدية أبي في عيد ميلادي الماضي.

في الحقيقة، كنت أعيش في ثراء مبهر؛ لكن كل هذا كان يثير في نفسي الضيق والسخط، وأنا أعيش في جلد فتاة أخرى اسمها ناتالي، لبنانية مسيحية، وأنا مصرية مسلمة، وقد قلت حتى للجدران الصامتة "شادن" وصرت أخاطب المرآة لدى استيقاظي ونومي.. اسمي شادن.. أنا شادن

***

نزل العجوز من المصعد الذهبي، أقصى يمين البهو، رغم أن صحته تحتمل صعود ونزول الدرج المرتفع، لكنه شيء من الترف لا يفوت هذا الطاغية.

سار باتجاهي، وأمسك ذراعي برقة مصطنعة، ولم يعلق بشيء على مظهري، فعلمت أني حزت نوعًا من القبول، فشعت الكراهية في كل خلايا جسدي.

قادني كالشاة إلى غرفة استقبال الضيوف الرسمية، حيث اصطفت في انحائها قطع الأثاث الفرنسية الفخمة، وفي منتصف الغرفة تدلت ثريا من الكريستال الحر، أخبرتني صوفي، مدرسة الفرنسية، إنها أثرية ،كانت يوما تزين أحد أفخم القصور في منطقة البوريفاج الفرنسية إبان عصر لويس السادس عشر؛ قالت هذه المعلومات مبهورة، وأنا أغمم في سخرية:

– وماذا كان يعمل هذا اللويس؟

يومها نظرت إليّ مذهولة.. ماذا كانت تتوقع هذه المخبولة من فتاة مصرية في السادسة عشر، كل التشابه بينها وبين اللويس المذكور هو الرقم ستة عشر. هل كان مطلوب مني أن أحفظ تاريخ فرنسا؟! هؤلاء الحمقى، لو كانوا يفهمون أني شادن، ولست هذه الناتالي.

– هل أعجبتك الثريا؟

تمتم العجوز أنا، وقد انتفضت فجأة..

– ماذا ؟!!!!!!

– أرك تطيلين النظر. .

– أجيبه.. لاشيء.. فقط تذكرت محاضرة صوفي السخيفة عنها وعن لويسها.

– من بين عينيه المغمضة نصف إغماضة، وهو يشعل الغليون؛ ثم ينفث الدخان الرمادي في الهواء، قال:

- تقصدين مدموازيل صوفي

- لا .. صوفي.

ونظرت إليه في تحدٍ.. لم يرد، فقد ابتدأ ضيوفه المترفين في المجيء، وكان عليّ أن أتصرف بشيء من الكياسة، وأنا أنهض للمصافحة الرسمية.

في الحفلات الرسمية، تجنب العجوز تقديمي باسم ناتالي، لأني كنت أجيب على الفور كلا .. شادن.

وكانت هذه نقطة الفوز الوحيدة، التي تغلبت فيها عليه. توافد ضيوف وزارة التجارة، وبعض أصدقاء العجوز. كانوا يربون على اثني عشر رجل وامرأة، منهم من كان في منتصف العمر، مثل السيدة نضال وهبة، وهى التي مازلت أتذكر اسمها، فقد ذكرتني بجدتي كثيرًا.

كان العشاء فخما ومترفًا؛ كعادة غسان خوري، الملياردير المشهور ببذخه الشديد؛ ولكنه بذخ رجال الأعمال، الموجه لغرض ما.لم أتذوق من الطعام إلا قليله، وقد انخرط الجميع في حديث لا أفقه منه شيئا.

بعد العشاء، انتقلوا لقاعة أخرى، يتناولون ما طاب لهم من مشروبات، مما أتاح لي الفرصة لكي أهرب من هذا الجو الخانق إلى الشرفة المزدانة بأصص الزرع البلورية النادرة، وقد هبت رائحة الياسمين قوية منعشة، مع ثمة رذاذ خفيف من المطر المبهج. وضعت

كأس العصير على الشرفة، ومددت ذراعي كطائر حبيس، ثم صرت أدور وأدور مغمضة العينين، مثل طيور البجع الحبيسة في المسبح الكبير.

أتذكر أبي، يقلني لمدرستي في الصباح وهو يتثاءب، وأنا أنظر إليه في خجل وضحك، ثم

– تمامًا .. مجنونة مثل أمك.

أجفلت من الصوت القوى،كان رجل في الأربعينات، اسمه طوني عراجي، يماثل أبي في طوله، ولكنه يشع بكثير من الأناقة، التي تخفي كثيرًا من سريرة نفسه السوداء.

التقطت كأس العصير، وارتشفتها ببطء.. فأنا أعرف هذا الرجل، ورأيته مرارًا في قصر غسان خوري، ويبدو أنه يعمل لديه. وكنت أجفل منه دائمًا، لأنه ما فتئ يرقبني بعيون ثعبانية خبيثة، ضمت الكثير من المكر والدهاء. ولكنها المرة الأولى التي يحدثني بها على هذا النحو المباشر، ويلاحقني بهذه الطريقة اللزجة، فقد وقف منحنيا على سور الشرفة الرخامي، ثم اقترب وهو يلامس أصابعي المنقبضة على الكأس، ونظر لعيني مباشرة، مما جعلني أرتعش بغضب، فضحك بسخرية..

– حتى تلك الارتعاشة للجفن الأيسر تمامًا مثل لوسي الحمقاء. من المؤسف أنها غادرتنا مبكرًا، لتعود في صورة ابنتها.
كانت لوسي هي أمي، ووصفها بالحمقاء شيء لا يمكن السكوت عليه.. لم أدر بنفسي ألا وأنا أغمره بالعصير على رأسه، وأرد على سخريته بسخرية أشد..

– وهل تذكرك هذه الحركة بها أيضًا؟وقف للحق مذهولًا، وأنا أمامه لا أحرك قيد أنملة.. لم يهزني سوى صوت غسان خوري، يوبخني محتدًا، مما زاد غيظي، فكسرت الكأس على سور الشرفة بعنف، ولسوء حظي انغرست إحدى الشظايا في يدي، تمامًا في الوريد، ليتدفق سائل الحياة على الأرضية الرخامية في سرعة مخيفة، و أفقد الوعي.

الأمل

مضى أسبوعان على الحادث، وستنتهي فترة عقابي غدا، فقد لزمت غرفتي طيلة هذه المدة، بشيء من الرعاية الطبية، تحت رعاية طبيبة فلسطينية شابة، تدعى فدوى الجارحي.. كانت تعاملني بلطف بالغ ومودة، وابتسامة دافئة كانت تشع في ملامحها الطيبة الفتية.. ورغم فارق السنوات القليلة بيننا، فإني دائما شعرت في مسلكها بشيء من الأمومة والحنو.. إلا إنها كانت تزورني دائما تحت عيني جانو، المتحفزة المتلصصة.

كانت فدوى امرأة مسلمة محجبة، تقيم مؤخرا في ضيعة خوري، في أحد أطرافها، في بيت صغير، يخص شقيقها نادر، رئيس حراس غسان خوري، بعد انتهاء دراستها الطبيبة، وفي انتظار تعيينها. ورغم محاولات فدوى المستمرة في رفع روحي المعنوية، وإخراجي من كآبة المرض والحبس في هذه الفترة، إلا أنني كثيرا ما سألت نفسي، هل حطموا روحك المعذبة يا شادن؟ هل تغلب العجوز على عنادك وتمردك؟ هل نسيت حقيقتك؟ هل صدقت كذبهم، وصرت ناتالي؟ هل قتلوا فيّ الإرادة حتى بت أنسى هويتي، وأتقبل كينونتي الجديدة؟

تمتمت بهذا الكلمات بعيون دامعة، وأنا أرقب القمر الخجول خلف الغيم من نافذة حجرتي. وكان الغيم قد أخفي الضوء الفضي، وصار القمر حبيسًا ينتظر هطول مطر الفجر، فزدات دموعي، فمسحتها بألم، واستدرت لأعود للنوم.. إلا أن صوتًا ضعيفا شجيًا،

قطع سكون الليل، أخذ بمسامعي صوت لم أسمعه من زمنٍ بعيد، يرتل القرآن الكريم، صوت أعاد إليّ الأمل والحياة، فلم أشعر إلا وأنا أقفز عبر شباك حجرتي إلى غصن الشجرة العريض، ومنه إلى الأرض، وقد نالني من أذى الأغصان ما نالني.. ولكن الترتيل الشجي كان من النوارنية ما جعلني أنسى أي ألم.

نزلت إلى الحديقة الحالكة الظلام التي بدأت تضئ رويدًا والقمر الأسير يخرج من بين الغيم الرمادي والصوت الرخيم يزداد وضوحًا وقد صرت قيد أنملة من صاحبه وهو يقرأ سورة طه.. كنت أستمع بكل جوارحي.. أبكي في خشوع، وأهتف يا الله.. يا الله، وقد اهتز قلبي في وتيرة متصاعدة تارة، هادئة تارة أخرى، وشعرت كمن يسمو في الفضاء كطيف، وقد اتحدت خلايا تكويني مع الشجر والهواء والجبال في كينونة واحدة. كانت هذه هي لحظة ميلادي الجديدة.. لحظة الأمل سجلتها دموعي الماطرة الفرحة، وتحالفت مع رذاذ المطر الناعم الحالم.

وحينما ختم القارئ التلاوة، كان بكائي قد تحول إلى نحيب بصوت مسموع متوالٍ.على بعد خطوات، وقف هو في حيرة، ينظر إليّ نظرات خاطفة، تشجعت وأنا أقول بعد أن مسحت الأمطار المنهمرة من عيني:

– معذرة!

تمتم في حيرة..

– أرجو أن تكوني بخير.

– لا تقلق أنا بأتم حال، هكذا أنا أبكي حينما أسمع القرآن الكريم.

فابتسم، وقال:

– أرضاك الله، وأسعدك بمثل...

– بســــــام.. أين أنت؟

لم يكد يكمل الجملة إلا وقد ظهرت فدوى تنادي، وهي ترتدي عباءة سوداء جميلة، وقد غطت شعرها على عجل بغطاء حريري أخضر، أظهر خصلاته الشقراء..

وقفت بجانبه، وأمسكت بذراعه وهى تنظر تجاهي، وقد فاجأها وجودي:

– بسام، هلا تعرفت على ناتالي خوري؟

نظر إليّ في ذهول، وهو يتمتم: ناتالي!

كانت دموعي قد تسربت كالحلم، وقد وقفت بوجهي المحمر أقول بثورة وعصبية:

– أنا شادن.. شادن سميح محمود.. لست بناتالي ولن أكون.

ثم أنهار في بكاء مرير.

تركته فدوى، وهى تقترب مني، وتحيطني بذراعها في حنو

– ناتالي حبيبتي اهدئي، إنك متعبة..

ثم نظرت لبسام في توضيح:

– تعرضت ناتالي حفيدة السيد غسان لحادث مؤخرًا.

صرخت في يأس، وقد شعرت أن مولدي، الذي بدأ لتوه، يضيع في شرنقة الأكاذيب، التي أحاطت بي. وانهرت أرضا متكومة، وفدوى تهدئ من لوعتي وتقول:–

– اهدئي حبيبتي

فقاطعتها بحرقة:–

– أقسم لك أني شادن ولست ناتالي هذه.

قلت هذا وأنا أمسك بيدها بلوعة، وقد وقف بسام بقامته المهيبة، ووجهه الذي يحمل الكثير من ملامح فدوى، بشعر أسود ناعم، هزته رياح الجبال الآتية عبر المروج، وقد عبقت برائحة شجر الصندل، فزفر في حيرة، وهو يهتف وقد بدأ رذاذ المطر يتكاثر، والغيم يتلبد، وصوته يقول في خفوت:–

– فدوى.. بالله عليك انهضي بالفتاة، ولندخل المنزل.. نهضت بيد فدوى، وشعرت ببسام الذي وقف يراقبنا في تعاطف يبغي المساعدة، ولكنه رجل يتملكه الكثير من الحياء، وقد سار بحذاء كتف فدوى، التي استندت عليها بكل ضعفي، وقد بدأت أتماسك رويدا رويدًا، وأنا أمضي معهم.

ما بدا لي بيتا صغيرا في أقصى الحديقة المترامية الأطراف، وقد دفع بسام بابا خشبيا صغيرا في منتصف الدار، لأدخل ردهة متوسطة الحجم، بها طاولة صغيرة لتناول الطعام، وأثاث بسيط مكون من كرسي و أريكة، يبدو أن أحدهم ينام عليها، فهناك فراش تدلى في إهمال من فوقها، ولم يغب عن بسام، الذي احمر وجهه لمعرفتي مدى

إهماله، ونظرة عاتبة مرحة من فدوى، فأسرع لحمل الغطاء خلف الأريكة، لنجلس أنا وفدوى، وهى تقول معذرة يا صغيرتي.. بيتنا بسيط.

ثم تنحنحت..

– في الواقع هو مترل أخي نادر، ونحن ضيوف عليه، إلى أن يتم زفافنا بعد عدة أشهر.

وقد علمت مسبقًا أن فدوى معقود قرانها على بسام، وقد أوضحت:

– بسام يعمل مهندس تقني في إحدى الشركات الشهيرة، ولكنه يزورنا في نهاية كل أسبوع.

كانت فدوى، التي تكبرني بأعوام بسيطة، تلعب معي دور الأم الحنون مرة أخرى، لتشعرني بالأمان، ولم يفتني كلمة صغيرتي، وقد ابتسمت لها في دفء، لأن ركنا بها بدا متحيرا في هويتي، ولم يكن لدى بسام هذا التردد على الإطلاق وهو يقول:–

– لك اسم جميل شادن

ثم أردف دون أن يرفع بصره إليّ، وهو يجلس على الأريكة:
– ولك لهجة مصرية محببة، افتقدها كثيرا، فقد درست في القاهرة منذ عدة أعوام.

نظرت له بامتنان، بينما زوت فدوى حاجبيها، وكأن اعتراف بسام بهويتي قد أرعبها ،ولم تكد تقول كلمة، وإذا بإحدى الغرف تفتح، ويخرج منها نادر بملابس النوم، وهو يهتف بصوت ساخط:

- فدوى.. هل أعددت الشاي؟

ثم ينتبه إلى وجودي، وبسام يضحك قائلا:

- لدينا بعض الضيوف.

وقد اعترى ابن عمه الذهول، وقد ألقى إليه بسام بالغطاء، ولكني أقف في انتشاء، وأصر على الانصراف، فشعرت بتنهيدة حارة من فدوى، ولم أنظر لوجه بسام.. خجلت أن أنظر لوجه بسام.

خديجة

تغيرت بي الحياة هذا الصباح، وقد اشتعلت بي جذوة الأمل، ويا لها من جذوة أشاعت الدفء في جوانحي، التي اشتاقت للقاهرة، حينما تراءت لي فوق طيف الخيال وديعة ساكنة من فوق حديقة الأزهر، بمآذنها المضيئة الفضية، وشواهد القبور المظلمة، وحركة السيارات الدائبة في صلاح سالم وفنادق النيل المشعة من بعيد، والبيوت الساكنة الدافئة، وصوت جدتي الحنون، وهي تحمل لي في مودة كوب الحليب كل مساء، وصورة أبي وهو منهمك في رسم هندسي ما، فوق مكتبه. كل هذه الصور اجتاحت خلايا عقلي، وغمرتني في بحر من الدفء والحنين، كنت كالغريق الذي وجد مرساة نجاته، لذا شرعت يدي في نشاط، وأنا أكاد أعدو في الحديقة، وقد تنفست أشجارها وزهورها في الصباح الباكر، الغارق في رذاذ مطير حبيب. لأول مرة أحب الطبيعة هذا الصباح.. صار المطر رفيق سعادتي، بدلا من مستودع بكائي، وقد حمل معه الكثير من الحلم، لفتاة بائسة ضعيفة مثلي، فطرت كعصفور صغير عبر الباب الحديدي الشامخ، أدور صاخبة، وأتنهد في راحة مغمضة العين، ملتفة الذراعين حول جسدي النحيل، وقدماي تحتكان في همس عبر الفناء الأملس في اهتزاز، غير عابئة بألم السقوط، ثم أخطو بقدم واحدة السلم الجرانيتي العتيق، بينما تندفع قدمي الأخرى عبر الدرجة الأخيرة في قفزات سريعة، لأقع في الحضن الدافئ لخديجة، طباخة القصر السمينة القصيرة القامة الحنون، ذات الخمسين خريفًا فوق خريف، قضت منها الكثير والكثير في قصر ملك الطغاة غسان خوري.

وقد شممت من مريلتها رائحة الطحين المميزة، فلبثت في حضنها فينة، أرتعش وهى تؤنبني في ضعف..

– يا لك من طفلة كبيرة.. انظري لشعرك المبلل من رذاذ المطر.

– بل إنها روحي التي بللها ورواها ندى الصبح.

هتفت بها، وأنا أدور حولها في شقاوة، تحبها هي، وتفرج قليلا شرنقة الظلمة المحيطة بحياتي.

– أحب المطر، أحبك جوجي.

وجوجي هو الاسم الذي أحببت دائمًا مناداة هذه السيدة الطيبة، التي كثيرًا ما رقت لحالي، ولمحت في عينيها العطوفة التماعة الدموع، التي تخفيها بمهارة بعيدًا عن الأعين، وكثيرًا ما تسللت ليلًا إليها، وهى تقف وحيدة فوق طناجرها العامرة دومًا، لأنها المسئولة عن إطعام القصر وعمال الضيعة. وكنت أسترق السمع إليها تدندن بشيء من أغاني فيروز، أو تدعو خيفة لابن ضل عنها، عله يعود يومًا، وحين تلمحني تزجرني في مودة خائفة، لأعود لمأسري، ولا تنسى أبدًا أن تخرج لي شيئا من الحلوى الغارقة بالفستق والعسل، تعدها خصيصًا وتحفظها في حالة مجيئي، ثم تربت على يدي في حزم، وهى تضمها ضمة أم حانية، وتدير وجهي حتى أستدير وأعود، وأسمع دائمًا صوتها خافتا يتمتم بالدعاء.

وها هي تداعبني..

– يا كتلة العظام النحيلة، علينا أن نكسوها بشيء من اللحم
و...وما لبثت أن توقف حديثها لدى الدخول الطاغي لغسان خوري، وقد استيقظ مبكرًا عن موعده.

وتكسرت أشرعة الأمل التي ملأتني على صخرة الواقع الرمادي الكئيب، وهو يهتف بصوته العميق، وقد ألم بحديثنا، ويوجه كلامه للمرأة المسكينة..

– لا أعتقد أن اسم جوجي يليق بك خديجة.

فتحفزت في عناد، ووجه خديجة يستحيل تغضنا واحمرارًا، وهي تومئ برأسها، وتستأذن من غسان خوري للانصراف،فأمسك بذراعها غير عابئة بالنتائج

– بل يليق تماما.

وأردف في لهجة الواثق، لأكمل حديثنا المبتور:

– جوجي.. ماذا لديك من طعام الإفطار؟

فنظرت لي بعتاب وضعف، وقد أنكسر شيئًا في روحها المرحة.

وقد راق الأمر للعجوز الخبيث، وهو يستعرض قوته الطاغية، وتراقصت ابتسامة عابثة عبر وجهه، وهو يقول:

– أيتها الصغيرة العنيدة، فلتكن جوجي، مادام جدك سيحظى برفقتك للإفطار.

ولم أكن أعني هذا مطلقا، أجلس مع الطاغية المستفز على مائدة واحدة، وننعم بتلك الرفقة الصباحية الأسرية المبهجة.. أمر خارج تمامًا عن محيط أفكاري، فلم يحدث أبدًا خلال العام الذي قضيته هنا، بين هذه الجدران المهيمنة على روحي قبل جسدي، أن تبادلت معه حديثًا مهذبًا، أو كلمة ودية، فما بالك بالطعام وجهًا لوجه معه. وقد تخيلت مئات المطارق تنهال على معدتي، وتدكها دكًا مريعًا، لكني تذكرت جوجي، وتذكرت فدوى وبسام، وشيء في أعماقي ينبئني بأن أستكين قليلًا، وأنتظر. فمن يعرف.. من يعرف!

قلت:

– لا بأس.

وأنا أهمس لجوجي بشيء ما، وهي تختلس نظرة سريعة مؤنبة، لم تفت الرجل الواقف ممسكًا بعصاه، يدقها في رتابة بصوت خفيض، وتنصرف جوجي في سرعة، وقد ضاقت عينا العجوز، وهو يرمقها في شك.

وقد وقفت أمامه في اعتداد بالنفس، لم يهزني صوته الرنيني العميق يزفر في وجهي..

– ماذا تدبرين؟

ويشير بأصبعه في وجهي..

– حذار ناتالي، فأنا أعشق عقابك. فعضضت على شفتي، وقد أثارني قلقه ببهجة..

- لا تقلق مسيو خوري.. لا تقلق أبدًا.

قلتها وأنا أتجه لحجرة الطعام.

من قال إن الإنسان لا يملك عينين خلف رأسه كاذب، لأني أحسست بسياط تلهب ظهري وتحرقه.

حديث الكرز المر

كانت المرة الأولى، التي أجلس على مائدة الإفطار مع العجوز، الذي بدا مستريحًا ومنتعشًا للغاية.. يحرث بطريقة مدربة، لا تخلو من نهم، طريقه في الأطباق العامرة بالمربى والزبد والجبن و الكرز الأحمر القاتم..وقد جلس بكل جبروته يأكل. ولم يرهبني حضوره هذا، فقد كنت أكتنز له كراهية لا مثيل لها.. كراهية تجلب السقم للنفس، غير أن لقاء بسام، والأمل الذي شملني هذا الصباح بالاعتراف بهويتي، جعل شهيتي قوية للطعام، وقد انتظرت حتى جاء طبقي المفضل، الذي أوصيت جوجي به في حديثنا الهامس منذ قليل.

وقد انغمست آكل منه بكل لهفة وحنين، والعجوز ينظر لي مستاءً، وهو يرتشف شيئا من العصير، ويهتف بتأنيب

-متى تنسين أمر هذه البقوليات؟

– يسمى "فولًا" مسيو غسان.. وهو أساسي لدينا ، يبدو أنه يحتوي على ما يسمى هرمون السعادة.

أمسك بمنديل ورقي، ومسح فمه، و هو يقول باستغراب مفتعل:

– لديكم.. سعادة!!!!!

أكملت وأنا أغمس اللقيمة في الطبق:

-هذه حقيقة علمية يعلمها الكثيرون.

ضحك باستخفاف..

- لذا يطلق عليكم الكثير (فوالين) غصت الكلمة في حلقي، وأنا أبتلع معها الإهانة الماكرة، التي تضمنت اعترافًا مختلسًا بهويتي المصرية، فأمسكت بالطبق وأنا أقول:

- هؤلاء الفوالين هم من أشعلوا فتيل الحضارة و.. وقبل أن أكمل، قرب طبق الكرز تجاهي، وهو يقول في مودة زائفة:

- لا أحب إغضابك ناتالي، تذوقي قليلا منه يا صغيرتي،وسيغير مزاجك الكئيب.

نظرت للكرز الأحمر القاتم، يلمع في وهن في الطبق البللوري، وأنا أهمس في ضعف، وشيء من الدموع يحرق عيني:

- لا أحد يحب الكرز،خاصة الصغار.

ضحك في خفة..

- تقولين تفاهات.. أي تفاهات وهراء

-على النقيض مسيو خوري، ينكهون به الدواء.. فنكره الطعم منذ الصغر.

أحسست أني رددت عليه كلامه.. عقد بين حاجبيه، وقبل أن يرد بكلمة "ناتالي "، قلت محتدة:

- ليست صعبة الأربعة أحرف على النطق.

- ماذا!!؟

- ش ا د ن .. أعني شادن.

تنهد العجوز في تعب، لم يفقده شهيته النهمة، وهو يرتشف عصيره مرة أخرى، وقال:

- تملكين عناد "لوسي" ومكر "سيلين"، ولكن كلتاهما لم يكن لديها شيئًا من ذكائك المتقد.. أنت الابنة الحقيقة لعائلة خوري..

قالها وهو يضع الكأس في قوة على المائدة.هتفت بي أعماقي.. هذا هو الجنون المطبق، وتصارعت الكلمات في أعماقي،وتموجت كالإعصار المكبوت، وكأنها ترتسم في دمائي وتسممها.."لعنة الله على خوري وعائلته "ولكنها بالطبع لم تتجاوز شفاهي التي غممت في حيرة:

- سيلين.. من هي سيلين؟

تساءلت، والعجوز يغص بغتة، وقد فاجأه سؤالي.. نم عنه تشابك أصابعه، وتوتر جفنه الأيسر.

في تلك اللحظة، التي لم يحر فيها جوابًا، وقد علق سؤالي في هواء الغرفة، دخل توني عراجي

وقد جلس على المائدة بعد إشارة من غسان، وقال في برود:

- كيف حالك آنسة ؟

نظرت إليه بنفور،، وأنا أمسك السكين وأمرره على الطبق في صوت مسموع وبحدة، في تهديد صريح، وأرفع رأسي في قوة. وقد جزلت كثيرا، وأنا ألمح نظرة الذعر في عيني هذا الجبان، الذي تذكر

حادثة الشرفة، بينما ضاقت عينا العجوز، وهو يرقب المشهد الطريف، في ابتسامة صفراوية مغمغمًا..

- فتاة شريرة.

وجلجلت ضحكته الساخرة أنحاء المنزل، وخاصة وهو يرى وجه توني يمتقع امتقاعًا شديدًا، وأنا أنهض في اعتداد وأغادر في هدوء، تتبعني ضحكته الشريرة أغلقت الباب خلفي، وأنا أخرج مرة أخرى للحديقة، حيث جو الأخرس يقبع، مزيلًا بعض الحشائش الضارة، غائبًا عن العالم في جلسته المنحنية - يا لك من شخص طيب يا جو- .. بينما الرياح الجافة تهز زهر الأقحوان الأصفر، وتطير زغبه الرقيق في دوائر.. تمشيت حول حوض السباحة المترف، وقد تموجت مياهه في رتابة، بينما نظرت للسماء الخالية سوى من بضعة شذرات سحابية خجول، تستجديها الريح استجداءً، فتتمايل وتتجمع، كي تهبط على الأرض الرءوم، ثم تتلاشى..

ضحكت في استغراب للهو الطبيعة، وقلت يا له من مطر كاذب.. بينما جو يمنحني ابتسامة وادعة، وهو يعطيني زهرة أوركيد برتقالية، ويمضي حاملًا حقيبته القطنية الأثيرة.. بينما راحت عيني تتعلق بمنزل نادر، رئيس الحراس، لعل بسام أو فدوى يخرجان، وقد جلست قرابة الساعة حتى تيبست أطرافي، وداعب النعاس الخدر جفوني في رقة، ثم أفقت مذعورة على باب يصفق في حدة .. ونادر يمر بي بقامته الطويلة وبنيته القوية في تؤدة، دون أدنى كلمة، بل إنه أدار وجهه حينما رآني، واتجه إلى البوابة الرئيسية، وهو يملي بعض

الأوامر على الحرس، لا يحتاج الأمر الكثير من البراعة لأخمن أنها تخصني، وأن هناك شيء جرى في بيت آل جارحي بعد زيارتي.. شيء غير سار بالمرة.

نظرت مرة أخرى للسماء، وهالتني تلك السحب الرمادية الكئيبة، تتجمع فوق قصر غسان خوري، بينما انشقت السماء عن ضوء لامع، غمر مترل بسام وفدوى.

غممت.."كثير من الشر.. كثير من الخير" وأنا أدلف عبر دهليز المترل المظلم، المؤدي لغرفتي.

لم أكن أعرف أنى صنعت سحابة سوداء في بيت الجارحي، وسببت مشكلة كبيرة بين أفراد هذه الأسرة الصغيرة، الهادئة هدوء البحيرة الساكنة، التي تخفي بداخلها الآلام الكبيرة، التي عصفت بهم طوال أعوامٍ مريرة حتى ركدت في الأعماق جثة خاوية دامية، حرك ذكراها وجودي ذاك الصباح المطير بينهم.

كان تعاطف بسام وفدوى السريع معي يقلق نادر كثيرا، بل زاد هذا القلق وبسام يقول أمامه في قوة، يخشاها نادر دائما، فهو يدرك صلابة بسام، وقد خبره لسنوات طويلة، حينما يخطط لشيء ما، وقد دوت في أذنه كلماته كطرق الطبول:-

- هذه الفتاة تسلخ هويتها بكل قسوة، وهى بعد غضة صغيرة، لا تملك من أمرها شيئًا، ولن تقاوم كثيرا أمام جبروت خوري العجوز.

ثم يهتف بقوة في وجه نادر:

– لابد من إعادتها لذويها.

فحدق فيه نادر للحظات، وهو ينقل بصره بينه وبين وجه فدوى القلق، وقد أمسكت ذراع بسام في قوة، تسانده كعادتها. هو يعلم هذا أيضا، فلطالما وقفا أمامه يساندان بعضهما، وكأنهما شقيقان وليسا أبناء عم، فهتفت أعماقه بكلمة واحدة..

– أحمقان.. هذا ما ينقصني.

وكأن شادن صارت تهدد أمنه و أمانه، اللذان ضاعا سنوات وسنوات، لا يدركها من سوى من عاشها، وتذوق مطرها الأصفر المغبر بذرات الرمال، تسد الحلوق وتغلق الأنوف وتخرس الأمعاء المتقلصة من الخواء..نادر لم ينس سنوات الحصار في المخيمات، ولا الدماء الطاهرة التي اغتيلت.. لم ينس نظرة أمه الخاوية لدى موتها، ولا برك الدماء التي خاضها وهو يحمل أخته على كتفه، وبسام يمسك بيده في خوف وذهول، فقد باتوا ليلتهم على حكايا أمهم في أوائل الربيع، العبق برائحة الأقحوان الحار، واستيقظوا على دك البيوت، وعصف الرصاص، وصريخ متقطع وفزع. كانوا ليلة الهول هذه يختبئون من النور الساطع الذي غمر البيوت تلك الليلة المشئومة، ليتيح للخونة قتلهم، والتمثيل بجثثهم.

مازال بكاء فدوى المرير يصم أذنه، وارتعاشة جسد بسام وهو يحتمي بالجدار معهم، وكيف نزلوا البئر المظلم ثلاثة أطفال، هو كبيرهم، هربًا من الموت، بعد أن غاصت أقدامهم البريئة في الأزقة،

تصطدم بجثث الشهداء تارة، وبجيوش الفئران والقوراض تلتهم الجسد العربي، وقد اختلطت الأشلاء بركام البيوت والحجارة والخشب.. وكيف له أن ينسى عربات القمامة تنقل الجثث في الصباح، لتقبر الضحايا في قبور طويلة مظلمة، ليطويهم الثرى المبتل بمطر أحمر عاصف دامٍ.

كما لم ينس نظرة القوم له، لأنه ابن الخائن.. لم ينس وهو ابن السادسة مصرع أبيه على يد قومه، وكلمة الخائن تغوص في نخاعه، وتورثه السقم.. لم ينس زفاف أمه بعد أشهر.. كان كارها لكل شيء، لم يخفف عنه معاملة زوج أمه الحسنة، فهو لم يأت لدارهم وحده، بل بابن أخيه اليتيم بسام.

لم يكن يربطه أي شيء بالحياة سوى فدوى، شقيقته الصغيرة التي ربطت بينها وبين بسام برباط من الدم، أقوى من رباطها بأخيها غير الشقيق، ذلك الرباط الذي اشتد بعد استشهاد أبيها.. حتى أن لعب دور البطولة في ليلتهم الدامية لم يجعله يأخذ مكانة بسام لديها، الذي ظل يهدهدها في البئر المظلم، ويعدها أن يذهبان لأمهما.كان في الثانية عشرة، وبسام في العاشرة، وهي بعد طفلة غضة في السادسة.. غران أنضجهما آتون سنوات الجمر، كما كان يسميها، بمطرها الأحمر اللاهب المميت..وشتان ما صنعت بالثلاثة.. فقد أورثت فدوى وبسام قلبًا يافعا غضًا، ونفسا قنوعة، وإيمانًا راسخًا.. وأورثت نادر المرارة تعبث في جنبات نفسه، فتزيده سخطًا على الزمن، وتنعكس على نهر الوجود في داخله، فيموج بثورات الغضب، وتدفعه إلى الرياضة البدنية العنيفة، يفرغ فيها طاقته، تشيعه دائما نظرات أخته المشفقة، ونظرات بسام المتعاطفة.

وقد عملا على استكمال تعليمهما، حتى صارت هي الطبيبة، وهو المهندس.. أما نادر فقد تخلى عن دراسته منذ الثامنة عشر، ليعمل كحارس أمن، جراء قوته البدنية الهائلة، وبعدها تخلى عن كل شيء يخص هويته، ولم يكن يربطه بأخته وابن عمها سوى تلك الأموال، التي كان يرسلها لهما لاستكمال دراستهما.. تلك الأموال التي أصر بسام أن يردها بعد عمله، ولم يرفض نادر، بل اعتبر الأمر بلا معنى إنساني، رافضا كل مودة أو صلة حاول بها بسام أن يعيده لعائلتهم الصغيرة الفلسطينية الفتية، التي تحمل اسم الجارحي، وهو اسم لأعرق العائلات. وسخر كثيرا، فهو ينتمي للجارحي بالصدفة، وهل نسي أحد أبيه، وأن حياته اعتمدت على سوانح الحظ، وليس على صيت العائلة المندثرة.إن هويته الوحيدة، وموهبته تكمن في كونه رئيس حراس غسان، والذي خاض من أجله، أو بمعنى أصح من أجل وظيفته، الكثير، حتى أنه هو نفسه المسئول الأول عن اختطافي من القاهرة، لأعود لهذا الجد المقيت.

وهو لا يعتقد أنه جبل من طينة الأبطال المغاوير، لأنه في مئات المرات لم يكن يتبين خطر موقفه إلا بعد انقضاء الأمر. وقد اعترف لي، بعد سنوات، حين قابلته، أنه جبان، و الجبن ربما يجرى في دمه بالوراثة من أبيه، العميل لليهود الصهاينة.

لذا، كان حديثه عنيفا لبسام، وقد وقف يزأر في وجه بسام وفدوى..

– اسمع يا بسام.. أنت مرحب بك فقط لأنك زوج شقيقتي، ولن أسمح لك أن تتخطى الفاصل بينا..

فقاطعه بسام:

– لكن يا ابن العم..

– لست ابن عمك، تذكر هذا.

قالها نادر وهو يصفق باب غرفته خلفه، هذا وقبل أن يرد بسام، يخرج نادر وقد ارتدى ملابسه، ويلقى نظرة قاسية باتجاههما ، قالها في قسوة وسخرية..

– أظنك يا ابن العم تبيت لدينا ليلة الخميس، ألم يحن موعد مغادرتك؟

ويغلق الباب خلفه في برود وغلظة.. غلظة شعت في ملامح وجهه القاسية، وهو يرمقني، ويمر بي، ثم يلقي أوامره بمراقبتي، وتشديد الحراسة عليّ.

وهكذا قدر لي أن يكون من بين أفراد هذه العائلة الحليفة عدوًا شديد الخطورة.. وقد اعتبر أني أهدد أمنه وكيانه، وبدافع من هذا الشعور عزم على تتبع حتى أنفاسي.

بينما التمعت عينا فدوى بالدموع، وهى تربت على ابن عمها وتقول:

– لا تغضب منه بسام أرجوك

فيغمض بسام عينيه في ألم..

– إنه بائس، يخسر كل شيء..

فتقول فدوى:

- إن أمر الفتاة يزعجه، وقد يؤثر على وظيفته و..فيقاطعها بسام، فدوى أختي الحبيبة، ورفيقة دربي..هذه الفتاة ترغم على ترك هويتها، ترغم على ترك دينها..فهل نتركها، هل نغض الطرف عن هواها؟

- لكن بسام هي بالفعل حفيدته من ابنته لوسي، وقد يكون أبوها مسلما أو مصريا، لكن هذا لن يغير شيئا فيما يخطط له خوري، فهي آخر من تبقى له من عائلته.. أنت تعلم الروايات التي تروى عنه.

فيقاطعها بسام في ألم:

- ولو يا فدوى الظلم ظلم.. ونادر هو من يساعد الطاغية على تحقيق طغيانه.

شادن تتحدث

تركت الحديقة في نحو العاشرة صباحًا، وظل نادر الكئيب يخيم عليها، ودخلت القصر الرمادي مرة أخرى. لم يكن لدى درسًا اليوم، وقد خرج خوري ورفيقه بعد الإفطار بقليل، وجوجي منشغلة في مطبخها الأثير تعد الغذاء لعمال الضيعة، الذين يعملون في حقول التفاح والعنب الملحقة بالضيعة منذ السابعة صباحا حتى السابعة مساءً. ويربو عددهم على خمسين عاملا وعاملة.. يتناولون طعامهم في باحة خلفية مغطاة، صفت فيها منضدة خشبية كبيرة، سمرت بالأرض، ومقاعد قشية مهترئة، ومازلت أذكر حينما تسللت خفية لأنظر لهم من فرجة بين الأخشاب العتيقة، يتصاخبون في سعادة للساعة اليتيمة التي يستريحون فيها ليأكلوا ما يجود به عليهم خوري العجوز.. وقد لوحت الشمس وجوههم البسيطة، وارتفعت ضحكاتهم بينما سعدان القائم بتوزيع الطعام يطالبهم بالهدوء فلا يأبهون له.. هؤلاء البسطاء، رغم الشقاء.. أحرارا.

غص قلبي وأنا أتجول بين جنبات القصر الباعث على الفزع، بجدرانه الرمادية، وأضوائه الخافتة، وشرفاته المغلقة دائمًا، إلا في حفلات العمل.

كان الوقت مازال مبكرًا على الغذاء، وقد فكرت أن أذهب لجوجي في المطبخ، لأحظى ببعض الصحبة الطيبة، وأسمع خفية دعائها لِّي، إلا أني، بعد أحداث الصباح، استبعدت الفكرة، وخشيت أن

يلحق الأذى بالخادمة الحنون، فتعاطفها معي لن يغيب عن حس العجوز الماكر. ومما سمعت من عمال الضيعة عن قصص تروى عنه، إنه سريع الغدر، سريع الغضب، وقد وضع بين جنباته قلبًا من حجر صوان، لا يلين أبدًا.. وهذا اختبرته بنفسي كثيرًا.

أخرجني من أفكاري صوت فدوى ينادي على بسام، فهرعت لشرفة القصر الأمامية، لأراه مغادرا، يحمل حقيبة سوداء صغيرة، وفدوى تلحق به، تعطيه حقيبة أخرى صغيرة . ظني بها طعام الغذاء، فيأخذها ويمضي، بينما تقف هي، كالأم الرءوم، تلوح له مودعة.

ناديت عليها، إلا أنها تجاهلتني عن عمد، وسارت مبتعدة نحو الدار، وأغلقت الباب خلفها، دون أدنى التفاتة، وكأنها تلومني على رحيل بسام المبكر. ولكن ظني بها حسن، فأمثال فدوى يملكن قلوبا من ذهب، تنير لمن حولها، ولا يعلوها أبدًا الصدأ.. أعرف إنها غاضبة، ولكنها أملي الأخير، هي وبسام.

في النهاية لم يكن هناك سوى شادن، لأجلس معها، وأتكلم معها، وأحكي لكم عنها..قد أكذب حينما أقول إنني لست حفيدة خوري، ابنة لوسيا خوري، تلك الأم التي تتراءى لي صورها من بعيد، كطيف هلامي، فقد انمحت ذكرياتي عنها منذ طفولتي المبكرة، ولم يبق منها سوى بعض الصور القليلة، التي تشهد بوضوح أن ما يجمعنا يكمن فقط في عينيها.. عينيها التي تتراقص بالفرح، وهي تضع يدها في ذراع أبي في صورة زفافهما الوحيدة.وصور أخرى وهي تحملني رضيعة، ثم في أعوامي الأولى بينهما.. ثم لا شيء بعد ذلك.

تنبئني صورها عن سعادتها وحبورها، تلك السعادة تضع أمامها علامة استفهام كبيرة لاختفائها من حياتنا، وتجعلني أتساءل هل خطفها الجد البغيض؟.. لكن دومًا كان هناك اتصالات متباعدة كل عام بأبي، وهو يكظم غيظه، ويطالبها بتفسير لموقفها، فلا يسمع منها سوى النحيب.. حتى يأتي العام اللاحق، وقد قاربت العام هنا.. وينبئني حدسي أنها ستتصل بأبي، وتعرف منه اختفائي.. ولكن أين هي؟ وإذا كان خوري أباها، فلم لا تقيم معه؟!..وتزداد حيرتي أضعافا.. إن القصر ببنيانه الضخم، وحوائطه الجرانيتية، يحمل العديد من الصور، ولا توجد صورة واحدة لها، من بين العديد من الصور، التي تزخر بها تابلوهات الحوائط لعائلة خوري العتيدة، وقد زادت رهبتي وأنا أغوص في القصر للمرة الأولى.. إنها صور لنساء ورجال، وقد اتشحوا بالسواد، حتى صورة ذلك الطفل الصغير الوديع، الذي يحمل الكثير من ملامحي.. بل يكاد يكون صورة طفولية مني، كان ثمة كلمات بخط أسود صغير أسفل الصورة، لم أستطع قراءتها من بعيد.حاولت مرارا الوقوف على أطراف أصابعي وأنا أقرأ إيلى خوري، وإذا بصوت هامس يقول

– دعي الموتى يرتاحون يا بنيتي.

كان صوت خديجة، وهي تربت على ظهري، ثم تنصرف لتأخذ ساعة القيلولة، بعد انتهائها من إعداد الطعام.

تبعتها ببصري وهي تدلف حجرتها الصغيرة، وتنظر لي نظرة مشفقة، ثم تغلق الباب خلفها.. تتركني لأعاصير تصارع بداخلي،

وعلامات استفهام تدور في رأسي، وكآبة الموت تحيط بي، تكاد تلتهم الجماد المحيط، حتى ذاك البيانو في الركن، رغم أنه يقبع نظيفًا وبراقًا، يفضح صمته الطويل الصرير الصادر من مفاتيحه المهجورة منذ زمن بعيد، ويخبرني نشاز أوتاره إن وجوده فقط من عوامل الترف في القصر ليس إلا..

ابتسمت في ملل، ويدي تعابث البيانو في قسوة ضارية، فتصدر أصواتًا تؤرق موتى القبور، إلا الزر الأخير لم يعمل.. حركته يمنيا ويسارا، ثم نزعته بشيء من العنف الذي يفور في أعماقي، وأنا أهتف –:

– لا بأس هو مهمل .. فلن يضيره المزيد من التخريب.

ثمة حشية قرمزية اللون، محشورة في ثنايا البيانو، استرعت انتباهي.. فأخرجتها بلطف، فإذا بها تحوي بين أطرافها أوراقا صفراء، معنونة بلغة فرنسية، تحمل عنوان "أوراق سيلين".. يبدو أن شخصا ما وضعها هنا!هناك عبارة كتبت بخط منمق في الصفحة التالية "إلى ابنتي" وبين طيات الأوراق، وجدت صورة ضوئية بالأسود والأبيض، لسيدة أجنبية الملامح، وفتاة في نفس عمري.. كانت المذكرة الصغيرة تربو على ثلاثين صفحة، كتبت بالفرنسية، وقد أصبحت نوعا ما جيدة في اللغة بالإكراه.. وضعتها بجيبي.. أعتقد أنه، مع الاستعانة بقاموس، أستطيع حل رموزها. ثم تذكرت خطأ العجوز في الصباح.. "تشبهين سيلين".. ترى من هي.. أهي إحدى ضحايا خوري العظيم، وقد بنت يومًا على شواطئ الأماني قصورًا من الأمل، أينعتها أحلام

المطر الكاذبة، ثم هوت، وخلفت من ذكراها مجرد أوراق مهترئة؟.. استيقظت من أفكاري على خطوات رتيبة تذرع البهو، فخبأت الأوراق في جيبي، واستدرت لأجد جانو تقف فوق رأسي، وتسألني في لهجة محايدة-:

– آنسة.. أعلمك أنك ستعاودين دروسك بانتظام من غد باكر... وإذا كنت في حاجة إلى و..لم أنتظر سماع بقية جملتها.. ودون أدنى التفاتة، صعدت الدرجات الرخامية إلى حجرتي كي أخبئ كنزي الثمين.. أوراق سيلين.

وضعتها أسفل حافة فراشي، واستلقيت في كسل أتساءل ترى ماذا تخبئ الأوراق؟

ترى ماذا تخبئ لي الأيام؟.. ويؤرق شيء في ضميري معاملتي الفظة لجانو.. بيد أنها تكاد تحصي أنفاسي لتخبرها للعجوز.. تنهدت مرة أخرى، ثم حدقت في السقف البعيد، وخيالات تتراءى لي، والنعاس يخدرني ويخرجني من واقع العذاب، لأحلم مجددا بالمطر.. آه المطر لاهية في أحلامي، والمطر الحنون يغمرني، وبين أطياف الغيم، يضوي وجه بسام مبتسمًا، وثمة خصلة عابثة تتراقص على جبينه، بينما يتمتم بشيء يبعث الارتياح في نفسي ويغمرني بعذوبة ... نمت تلك الظهيرة دون أن أدري أن في هذه اللحظة كان هناك صراعا مريرا يعتلج في نفس بسام، وأن مصيري سيتحدد نتيجة هذا الصراع.

***

بسام:

مالي ومال هذه الطفلة؟ إن نادر على حق، وهو أدرى بخطورة وضعنا في لبنان.. ليس فقط وظيفته لدى خوري.. ولكنها طفلة بريئة، تتعرض لظلم بشع.. عرفت من حكي فدوى عنها أنها ابنة لوسيا، الابنة الوحيدة لغسان خوري، التي هربت منه ذات يوم، وتزوجت مصريا مسلما، وهناك في القاهرة وضعت طفلتها، وأن الجد لم يكن يعرف عنها شيئا حتى العام المنصرم، وأن اكتشاف وجودها جاء بمحض الصدفة، حينما وقع في يده خطابا عن طريق الخطأ، ارتد للضيعة من لوسيا إلى ابنتها.. يومها وجد أن أمله في حفيد تجدد، ودبر لإحضارها لبيروت بأي وسيلة، وهو يستميت في بقائها بكل قوة، ويحاول تصحيح خطأ ابنته -من وجهة نظره- وفي سبيل ذلك هو يدمرها، وينزع جنسيتها وهويتها، لتصبح ناتالي، المسيحية الديانة، اللبنانية الجنسية. وقد أخبرتني إنه يقال إن ناتالي فتاة أحبها في ريعان شبابه، وأنها هاجرت عن لبنان كلها هي وعائلتها، ولم يعرف لها طريقًا.

تنهدت، وأنا أمسك سور النافذة، حيث أقطن في أحد البنايات التي توفرها لنا الشركة في قلب بيروت، وقلبي يتملكه الضيق.. وصورة نادر تتراءى لي .. إنني أدرك أن تنزع جذورك وتزرع في بيئة غير بيئتك وشمس غير شمسك.. في النهاية تنتج مسخا إنسانيا، لا يحمل سوى الكراهية والانتقام بأبشع صوره، إذا ما سنحت الفرصة.ما أفظع هذا!.. هتفت في خمول وألم.. إنني أدرى الناس بقيمة أن تكون لك هوية، حتى وإن لم يكن لديك وطن، فأنا سليل

عائلة الجارحي الناصرية،أشهر العائلات الفلسطينية الفدائية بالناصرة، وقد أكون آخر أفرادها على الإطلاق.

وعصفت بي أعماقي، وأنا أمضي كالسجين في شقتي البيروتية الصغيرة، التي أقطنها مع صديق لي يدعى إياد، سوري الجنسية.. أحاول كل جهدي إلا أحدث ضوضاءً كي لا أوقظه، فمازال الوقت مبكرا.

ثم تراءى لي وجهك يا فدوى الحبيبة.. آه يا فدوى كم أحتاج رفقتك الآن.. فلست أعتبرك شقيقتي فقط، بل كثيرا ما لعبت دور الأم، رغم فارق الأعوام بيننا.. أحتاج للتركيز للخروج من المأزق الذي وضعتك فيه بأنانية.. كنت أتوق في زيارتي هذه لحل المشكلة بيننا، ووضع الأمور في نصابها.. كيف لي أن أظلمك بهذه القسوة.. لكن ذلك النحيب يقلق مضجعي ويشتت تفكيري..يا له من نحيب لفتاة تشتاق لنفسها ووطنها.. أتساءل في أسى ماذا يمكنني أن أمنحه لها في حالتي هذه... أقف وأرجع شعري للوراء في حركة رتيبة، محملقًا من النافذة، وقد بدأت الحياة تدب في الشارع، وثمة رغبة تجتاحني أن أهرع لقصر خوري، وأحطم الأبواب، وأذهب بشادن للقاهرة.. أعطيها الحرية التي أفتقدها دائمًا

لكن هناك نادر.. نادر الذي طالما حاولت أن أعيده لدائرتنا، فيقترب حينا ويبتعد أحيانا.. إنه يقيم مع غسان منذ خمسة عشر عاما، ولن يضحي بحياته أو وظيفته من أجل فدوى نفسها. جل ما يخشاه أن يخسره، ويصبح ابن العم عدوًا شديد المراس، صعب الطوية.

انتابني صداع رهيب في هذه الليلة، ونمت محموما تنتابني شتى الأحلام.. شادن تغرق في بحر مظلم عميق، تصارع الأمواج، بينما أقف أنا على الشاطئ، أدير رأسي، أتلفت بين الحين والآخر، لعل البحر يبتلعها، ويخلص ضميري من صراخها..ويأتيني في أحلامي من بين أطياف الغيم فارس نبيل، آمرًا بصوته الفولاذي

- انقذها.

أسال.. من أنت ؟! .. من أنت؟!

- ألا تعرفني؟

- بل أعرفك، ولكن لا أتذكر اسمك..

فيقول آمرا

- أذهب .. انجدها.

- من أنت؟! ...

فيصفعه ويقول:

-يال مروءة العربي!

التفت مرة أخرى صوب البحر، لأجد فجوة عميقة سوداء، تبتلع شادن ومعها فدوى لأعماق الظلمة، فتمتد يدي بسرعة، كيدي عملاق تتشبث الفتاتان به.. ثم أجد وجه الفارس يمتزج بغيم الحلم وهو يقول:

- لا تتركها أيها الناصري..لا تتركها أبدًا.أستيقظ مذهولًا، وأذان الفجر المنبعث من المذياع يدور في أذني، بينما تمتد يد شريكي في السكن وصديقي، إياد وهو يهزني بلطف أن أستيقظ، ويهتف بي وقد انتابني الهلع لصراخه:

- استيقظ يا بسام.. ما بك يا بسام؟.. استيقظ يا صديقي.

يناولني كوب ماء وهو ينظر لي في حيرة متنهدا، وهو يرقب صدري يعلو ويهبط. تساءل وهو يجس جبيني الغارق في العرق.. من الأفضل أن نذهب للمستشفى.. حالتك سيئة.

أزحت يده برفق..

- فقط أحتاج للراحة.

نظر لي بشك.. أردفت:

- أبلغهم في العمل بحاجتي لإجازة اليوم

عقد حاجبيه في شك وعناد..

- تحتاج طبيبا..

أشحت برأسي..

- ستمر عليّ فدوى في الظهيرة.. لا تقلق.

عقد يديه في حزم ..

- هناك خطب ما.

أغمضت عيني وأنا أروس له.. إنني أحتاج من يساعدني.. أحتاج الأمر بشدة.

امرأة غريبة

كان الحديث بين إياد وبسام قد أكسبني حليفًا جديدًا وقويًا..والحق أني لم أر إياد سوى مرة واحدة في حياتي للحظات وجيزة، وسأذكرها لكم في حينها.. ورغم هذا، فهو من دفع بالأحداث للتغيير... وهو من أرسى في قلب بسام الهمة والعزم لخلاصي.. فلم يكد يمر على رحيل بسام يومين، إلا وأجد فدوى، بطلتها البهية، تزورني وقت الظهيرة، في فترة الراحة، وبعيدًا عن أعين جانو.. سمعت طرقات رقيقة على باب غرفتي، وصوتها الهامس مرتعشًا.. فتحت بسرعة، لأجدها أمامي، وقد ارتدت عباءة قرمزية فضفاضة، قديمة الطراز، وقد شعرت أن هناك أرطال أضيفت لجسدها الرقيق.. دخلت في خفة فراشة، وهى تجيل نظراتها السريعة في غرفتي، ثم تستدير وتنتزع عباءتها، وقد لفت سجادة بديعة بخصرها، نزعتها بلطف، ثم أخرجت من جيبها المصحف الشريف.. نظرت لها وهي تمد يدها، وقد ترقرقت الدموع في أعيننا، وصوتها متهدج

– هي هدية وأمانة أن أسلمها لك..شادن.مواقف كهذه يخجل أن يهطل فيها المطر الحنون، فيعانق السحاب مرتجفًا من نشوة الأمل، فتهزه في لهفة دقات القلوب، وتمسح الأنامل أنهار الدموع على وجناتنا المشتاقة للسجود.. وأجد نفسي بين أحضان فدوى، ولساني يردد

– الحمد لله ..الحمد لله.

أقولها مرة أخرى، وسأظل أرددها.. لم يكن الفرق كبيرًا بين عمرينا، ولكني في هذه اللحظة وجدت في فدوى الجارحي الناصرية أمًا حنونا، غير أمي الأخرى جوجي، وهي تقف خارج الغرفة، ترقب الطريق، وحين يطل وجهها الحبيب عبر فرجة الباب، تشير لفدوى كي تذهب.. تغلق فدوى عباءتها الفضفاضة وهي تهمس ضاحكة..

– كوني حذرة حتى يقضي الله أمره..

ثم تمضي عبر الباب كالحلم.. وتختفي.

احتضنت المصحف الشريف، وهممت بوضع السجادة، لكني سمعت عبر الدهليز خطوات خافتة، لم أكن أشعر بها سابقًا، فقد تحفزت حواسي بشكل رهيب درءً للخطر.

خبأت كنز نجاتي بسرعة في أحد الأدراج وأغلقته، ثم وضعت المفتاح بجيبي، فقد توقفت الخطوات عند الباب.. بخفة القط سرت تجاه الباب، وفتحته عنوة، لتقع جانو أمامي.. نظرت لها بسخرية..

– لما لا تطلبين من العجوز أن يضع لي جهاز مراقبة أفضل في الغرفة، لتوفير جهدك الدءوب؟

قامت دون مساعدة، وقد احمر وجهها ليس من الخجل؛ بل من الغيظ.. وهي تجلس في هدوء:

– لما لا.. عزيزتي ناتالي..

كانت تعرف أن الاسم يثير جنوني، ولكني كنت أحتاج لصرفها بهدوء، حتى أتفرغ للعودة لشادن مرة أخرى، وأعود لهويتي الحقيقة، بعيدًا عن إثارة الشكوك.قلت..

- جانيت لماذا تضايقينني؟

أجابت بلا مرواغة:

- فقط أؤدي عملي أيتها الصغيرة..ناتالي.جاء اسم ناتالي من بين شفتيها كالفحيح، وأيقنت لحظتها أن هذه المرأة المحدقة بي تكن لي حقدًا سامًا، قد يكون جراء معاملتي الجافة.. ولكن طبيعتي أنبأتني أن الأمر أكبر من هذا بكثير، فقد رأيت نيران الكره السوداء تموج في عينيها، وإن لم تحرص هذه المرة على إخفائها، كطبيعتها الباردة.. كرهًا يكاد يتحول لسياط، بغيتها حرق روحي قبل جسدي.

سألتني مباشرة:

-ماذا كانت تفعل خديجة في غرفتك؟

غصت وأنا أقول كاذبة:

- تسألني أن تأتيني بشيء من الطعام.

حمدت الله أنها لم تصطدم بفدوى. يبدو أن جوجي أخرجتها دون أن تراها جانيت.

برقت عينها بشدة وهى تقول:

- تكذبين ناتالي..

ثم اقتربت مني، وهى تقرص وجنتي بخفة، تغصين حينما تكذبين.

- أنت حقًا ابنة لوسي.. لديها نفسي العادة.

نزعت يدها بعنف عن وجهي.. وأنا أقول:

-ابتعدي عني أيتها الأفعى..أنا أكرهك.

قالت ببرود، وهى تقف في منتصف الغرفة:

-وهل أطيقك أنا؟

وضحكت بسخرية.. لديك صلة حب مع خديجة، لأنها مسلمة. لكن أيتها الغبية الدين لا يشكل فارقا لدى خوري العظيم.. هي فقط عصبته الموروثة، فيجب أن تكوني ناتالي خوري مثله تمامًا.. هو لا يملك أي احترام لأي مقدس.. أن خوري العظيم لا ينحني أبدا، ولا يقبل إلا تطبيق عقله.

وقفت تجاهها وأنا أقول بمكر:

-ها أنت تسخرين من خوري العظيم.

-هتفت في ارتياع:

- يا لك من ماكرة، لكن تذكري أني يمكن أن أغض النظر، ولا أخبره عن زيارة جوجي.

كان تهديدها مباشرا، ردًا على تهديدي، وقد أدركت خطورة موقف الخادمة العجوز، التي تساعدني وهى الضعيفة..أومأت برأسي..

- حسنًا.. هل انصرفت وتركتني لحالي، فأنا أريد أن أغفو قليلًا.

همست بخبث بجانب أذني:

- تكذبين يا صغيرة.. فلم يحدث أن غفوت نهارًا منذ أتيت إلى هنا.. لديك عقل صقر متيقظ دائمًا تمامًا مثل خوري العجوز.ثم استدارت، وهي تغادر عبر الباب..

- لديك سر تفعلينه ناتالي.. فقط احفظيه بعيدا عن عيني وأذني.

وضحكت ضحكة شريرة، وهي تغلق الباب خلفها.

كانت هذه المرة جريئة للغاية.. فهي تدرك حبي الشديد لخديجة، وقد كشفت عن نواياها السيئة تجاهها، بعد أن أمسكت بورقة ضد الخادمة المسكينة.. بيد أني أدركت أنها تكن لخوري العجوز حقدا مريرا وخوفا عظيمًا.

بعد انصرافها، أغلقت الحجرة بالمفتاح.. وابتسمت في رضا وأنا أتجه للحمام للوضوء.. ما أغبى الإنسان.. وضوؤه وصلاته يمدانه بقوة تجعله قادرا على مواجهة الجبروت، وقد شعرت بهذه القوة تسري في خلايا تكويني، وتتغلغل في روحي، وأنا أسجد لله عز وجل، وأتضرع في وله محموم أن يفك كربي وغربتي.

كانت ساعة تصافت فيها روحي ونفسي، وتعاهدا على الصمود.. حينما خبأت المصحف والسجادة مرة أخرى، كنت أحفظ معهما هويتي كلها، وأملي العارم، ولم يخرجني من هذه الطمأنينة سوى أصوات شجار أسفل شرفتي، فهرعت لأفتحها على مصراعيها، لأجد جانو تزجر راهبة غريبة بعنف، وتطلب منها الرحيل.. يوحي جسدها الضعيف عن فقر حالها، فناديت بعنف جانو.. كانت تضرب المرأة بلا شفقة على وجهها، فنظرت كلتاهما تجاهي، ثم طارت الراهبة عبر المروج، ثم عبر الباب الرئيسي،وردائها الكهنوتي يتطاير خلفها.نظرت في حيرة لجانو من نافذة غرفتي.. ونظرت تجاهي ولم أتبين ملامح

وجهها جيدا، ثم دلفت إلى القصر، وهي تضع في رأسي ألف تساؤل عن هذه الغريبة المسكينة، التي وقعت تحت رحمة جانيت..

يبدو أن القصر مليء بالطغاة كل على قدره.. وها هي سيارة الطاغية الأكبر تدلف من البوابة الرئيسية لحظة خروج الراهبة منها، ثم تتوقف برهة لتقف المرأة الغريبة أمامها، وقد أنزل سائقها الزجاج أمام خوري العجوز.. لم تكن الرؤية جيدة، فلم أتبين أن هناك ثمة حديث إلا من إشارات غاضبة ليديها بعدها. أسرعت الخطى عبر الباب الحديدي، لتختفي في لحظة، وتجعلني أتساءل.. من هذه التي أثارت غضب جانيت، ووقفت تتحدى العجوز؟.. هناك شيء غامض بها.. شيء يزعج جانو بشدة، ويزعج العجوز أيضا..

نزلت السلم الرخامي بعد فترة للعشاء.. وكان من تعس الحظ أن أقابل نادر الناصري وجهًا لوجه، وقد نم وجهه الحليق عن غضب شديد، ونظر تجاهي بحقد وهو يخرج من مكتب العجوز.. نظرت له بدهشة.. ترى ماذا فعلت له هذه المرة.. أغلق الباب خلفه بغضب بارد.. وصلت برودته لأوصالي.. دلفت للمطبخ، ووجدت صينية طعامي جاهزة، أخذتها بسرعة قبل خروج العجوز من مكتبه. وجلست في الشرفة ألتهم الطعام براحة وبطء.. استرخيت هادئة، وأنا أنظر للقمر نصف المكتمل، وأعد على أصابعي وأهتف.

- ثلاثة عشر قمرا انطفأت منذ اختطافي، وتساءلت لماذا لم يحرك أبي ساكنًا حتى الآن، واجتاحت جسدي قشعريرة أن يكون حدث له مكروه.. أخرج من أفكاري السوداء على صوت أكثر سوادًا، والعجوز يقف مراقبًا يقول:

- هنيًا

ثم يردف:

- متى تتعلمين قواعد الإتكيت، وتأكلين برفقة جدك ناتالي؟
نظرت له بنصف إغماضة ساخرة..

- يبدو أنها لا تليق عليّ.

جلس أمامي..

-فتاة متمردة سألته في حدة:

-مثل أمي؟

رد..
-جميل حبيبتي ناتالي أن تتذكري أن أمك ابنتي.
هتفت في حنق، وقد أزعجني صحة قوله..

-أنا لم أقل هذا مطلقًا.
وقف فجأة، وهو يدب بعصاه الغليظة المذهبة بالجرانيت بصخب..

- كفي ناتالي أيتها الحمقاء.. لاتغضبيني أكثر.. لدي من المشاكل ما يكفيني.. أنت فتاة جاحدة.

وجز على أسنانه..

- تماما مثل لوسي أمك..

ثم ولى عني، وانصرف إلى حجرته.

خبطت بكفي على جبيني.. أنا حمقاء بالفعل.. يجب عليّ مداهنة العجوز.. لكني في تلك السن الصغيرة مجرد فتاة لا حيلة لها، وكنت أحتاج لكثير من المكر لأخدع هذا الثعلب العجوز، حتى تكتب لي النجاة من براثنه.كانت الساعة نحو التاسعة ذاك المساء، وكنت سأنام في العاشرة.. لا بأس أن أفرد جسدي قليلًا في الحديقة المبللة بمطر مسائي شحيح، هبط فجأة ثم اختفى كضيف عابث.. حينما وصلت للشجرة التي التقيت بسام عندها.. شجرة الأمل كما أطلقت عليها.. شجرة بلوط ضخمة، جلست أسفلها القرفصاء، أنظر لسماء بيروت.. كنا في منطقة الجبل جنوب بيروت، وهي منطقة ذات طقس متقلب مائل للبرودة، فجلست القرفصاء أحيط جسدي بذراعي، وأضع ذقني على ركبتي كدمية صغيرة أخفتها الظلال. كنت أشعر أني أتوارى عن الأنظار التي تراقبني، وأحلم أن تختفي البقعة بي حتى لا يروني.. انتبهت على خطوات خافتة، فتكورت على نفسي أكثر، وأعجبتني اللعبة. يبدو أني تغيبت، وهناك من يبحث عني.كانت عدة خطوات هادئة، أنبأتني أن هناك شيء غير ما ظننت.. جاء الصوت الواضح القوى لنادر، وهو يهتف:

–جانو..أيتها الحمقاء،طلبت منك مراقبة الفتاة.

هتفت جانو:

– قد فعلت.. لكنها ذات ذكاء حاد، بل يبدو لي أحيانًا أنها خوري آخر أشد فطنة.

– صفق كفيه في حنق..

– طلبت منك مصاحبتها.. تقيمين معها منذ عام، ولم تكتسبي أبدا ثقتها.

فضحكت جانو في سخرية:

– أنت لا تعرفها.. هي صعبة المراس لا تثق في أحد، حتى محبتها القوية لخديجة يغلفها الشك. إنها فتاة عنيدة مثل أمها، مع ذهن متقد.

– صرخت جانو، ويبدو أنه أمسك رسغها، وهو يقول بصوت حاقد:

– ابحثي عن طريقة لتدخلي إليها.. هذه الفتاة خطر كبير، إن لم ننتبه جيدا سنفقد عملنا..

– كلانا.. أنا وأنت.

– ثم تركها وهى تتأوه..

– تذكري أني أخرجتك مما كنت فيه،ولن أذكرك. جاء صوتها باكيا

– أنا لا أنكر فضلك سيد نادر.. لا أنكره مطلقا.. وسأفعل ما بوسعي.

– إلا إنه أكمل في غلظة:

– من أخبر لوسي بأمر الفتاة، وكيف أتت؟..

كانوا يتحدثون عن الراهبة..عن لوسي..عن أمي! قالت:

– لا أدري.. لا سر يخرج من القصر.

قال:

- إن العجوز غاضب للغاية.. لقد رآها، وتبادل معها حديثا قاسيًا.

هتفت جانو:

- لم تطأ قدمها القصر منذ رحيلها للدير وعملها خادمة هناك، منذ اثني عشر عامًا..

كانت أطرافي قد تشنجت، فتحركت.. وراعتهما حركتي، فتحرك نادر بسرعة، وهو يشهر مسدسه في وجهي. وقفت وقد راعني منظره وهو يشد على نواجزه..

- ماذا تفعلين آنسة؟

قلت برصانة، وإن كنت أرتجف تحت تأثير عيني نادر القاسيتين:

- ماذا تظن؟ بالطبع..

احتار في ردي، وأنا أكمل:

- بالطبع اتصنت على ما تقولانه

وضع مسدسه في جرابه..

- إننا نعمل من أجل حمايتك آنسة ناتالي.كان ضخم الجثة، مفتول العضلات، ولم تخدعني لهجته الهادئة، فعيناه الطافحة بالغضب تنبئ الكثير عما يكنه لي. أمسكتني جانو برقة من ذراعي..

- هيا حبيبتي.. حان موعد نومك.

نظرت إليها بفضول، ولم أزجرها هذه المرة، بل تركتها تتمادى وهي تضع يدها حول كتفي، وتكمل بصوت حنون:

- هيا حبيبتي.

همست بأذنها بصوت غاضب:

– جانو..لقد صفعتِ أمي..وهاك الصفعة.دوت على وجهها صفعة مدوية مني.. وشعرت بغضب نادر الشديد، ليس لأني صفعت جانو؛ بل لأني كشفت هوية المرأة المجهولة، الراهبة الهاربة.

– كانت لحظة عاد المطر فيها بجنون، وقد وقفنا نحن الثلاثة: نادر وجانو وأنا، لا نتفوه بشيء.لحظة ظهرت فيها فدوى الحبيبة، التي كانت ترقب المشهد من بعيد، وقد هرعت لي بمعطف يقيني المطر، ويحميني، وهي ترجوني الدخول للقصر. اصغيت لها، ودلفت للقصر، وتركتها لنادر وجانو، وفاتني سعالها الجاف، وضعفها الواضح.

مرض فدوى وسفر العجوز

فدوى تتحدث

أشعر أني أعاني من المرض، وقد صارت الحياة صعبة بعد مشكلة شادن، وانشغال بسام الشديد بها. بدا هذا واضحا وأنا أزوره اليوم، وكان يعاني من مرض خفيف، لا يستدعي القلق.. إلا أنه يبدو أنني التقطت منه البرد، الذي يجتاح بيروت هذه الأيام.. ولم أشعره بما ينتابني من ألم وضعف، وأنا أشاهد حماسته الشديدة، وهو يتناقش مع صديقه السوري إياد، ونحن نتناول الطعام في أحد المطاعم الصغيرة الدافئة.

حرت في أمره.. فمنذ زمن بعيد لم أجد شيئا يهزه ويحركه على هذا النحو.. كانت خلجات وجهه تنقبض وتنفرج في سرعة لدى حديثه عن شادن.. تساءلت في نفسي هل هو ذاك التيار الصاعق الذي يجتاح القلوب؟.. ضحكت في سري وإياد ينظر له نظرة ذات مغزىً لم تفوتني.. إياد يعلم عنا أنا وبسام كل شيء.

إن بسام هو أخي الحقيقي، أما نادر فقد ذرع حول نفسه جدرًا منيعًا، يفتقر لأدنى المشاعر الإنسانية، فكيف له أن يتعاطف مع الصغيرة المسكينة، وهو نفسه لا يتعاطف مع نفسه، أو أقرب الناس إليه.. شقيقته وابن عمه.

كنا نتوق أنا وبسام للعودة، يوما لدارنا في الناصرة، ولكننا لم نستطع أبدا، فالأوضاع في غزة، والناصرة جحيمًا فعليا، وخاصة

لاسم مثل عائلة الجارحي، فقدت كل رجالها في حلم عودة الوطن المسلوب.ولم يبق منها سوى بسام الجارحي،وأنا فدوى الجارحي.زفرت بعمق، وأنا أقول كان أجدى بك يا نادر أن تكون شقيقي وموضع سري، فهناك من الأشياء التي لن أستطيع مصارحة بسام بها. وأوجعني صدري وأنا أتذكر بسام العزيز، ودمعت عيني دموعًا حارقة، حتى هطل المطر بقوة ضربت الشباك، فهرعت لأغلقه، حيث راعني أن أرى نادر يرفع مسدسه في وجه شادن، وجانو تشاهد الأمر، ثم لم يلبث أن ينزله.. توجست شرًا أن يكون كشف أمر السجادة والمصحف، وأنا دائمًا أتوقع أسوأ الأشياء من أخي.

حين وصلت، وجدتها تنظر إليهم بتحدٍ، وقد بللها المطر كليًا، فأعطيتها المعطف، وتوسلت إليها أن تذهب.رأيت التعجب على وجه نادر وجانو لانصياع الفتاة الفوري لكلامي،وما لبثت جانو أن اختفت في أثرها.ظللت تحت نظرات نادر النارية، فأشحت بوجهي وأنا أدلف عبر الباب والماء يتقاطر مني. ناداني نادر، فلم أعره انتباهًا، وسعلت بحدة.. إني مريضة بالفعل،ولا قدرة لي على التحمل، وحصار أسئلته، وأوامره التي لا تنتهي.لكن هل أخبرتكم يومًا أن نادر يملك لي، ولغير، مشاعر رقة واهتمام؟ هيهات!.. فقد دخل بعدي، وقد ارتميت على الأريكة بثيابي المبللة، وصوت نادر فوقي يرعد عن الفتاة، ويحذرني بأن أبتعد عن طريقها.

وقد رحت في إغفاءة ثقيلة وأنا أرتعش بشدة، فألقى على بدثار وهو يقول

-كأني أحتاج مزيدا من المشاكل.

نمت في هذه الليلة محمومة، تنتابني أحلام شتى، لا علاقة لها بشادن أو نادر أو حتى بسام، بل بشخص آخر تمامًا، شخص قدر له أن يبتعد عني بإرادتي..كم أنت عجيب أيها القلب، حينما تتألم في صمت، وتعصف بك رياح الحنين.. آه آه يا عذاب روحي، كيف هي الحياة دونك أيها الحبيب..

تذكرت وجه بسام وهو يتحدث عن شادن، وأنا أنوح على ذاك التيار، الذي مس قلبي يومًا. وضعت يدي على قلبي وأنا أهمس في ضعف:

- ليته يعلم.. ليته يعلم، ولا يتعذب كما أتعذب.

***

نادر يكمل:

وقفت أمام الباب، وقد تشبع المساء برائحة الماء المطري.. كم أكره المطر.. ولكني أحب وجودي هنا، وأحب عملي كثيرا. والحقيقة أن خوري يجزل لي العطاء.فأنا رئيس حراسه، وقد تلقيت عنه الرصاص في إحدى المرات، مما أتاح لي أن أكون رئيس حراسه.

لكن تلك الفتاة الحمقاء، ناتالي أو شادن، التي ظهرت من العدم، حينما علم بوجودها،وترت الأمور وعقدها، وصار يحسب لي الأخطاء، وكان يكفيني ظهور لوسي الليلة في الضيعة، لتلقي نظرة على ابنتها.هتفت "اللعنة"، وأنا أبصق على الأرض.. تبًا لك جانيت، لولاك ما حدث هذا.. هل اعتقدت أنك تتقربين من العجوز، حينما

أفشيت السر، الذي اعترفت به لوسي حينما زرتها؟ وعززت موقفك بذلك الخطاب الذي أوصتك بإرساله، لتقولي إنه ضل طريقه للمزرعة،

وإن لها ابنة؟.. ألم يكفك أيتها الحمقاء أني أنقذتك من الذل والهوان في ذلك الفندق في تل أبيب، حينما اصطحبني العجوز* في زيارة عمل، ووجدتك تحت رحمة إحدى جماعات الرق هناك، بعد أن طردك العجوز من بيروت كلها، لأنك من ساعدت لوسي على الهرب إلى باريس، لتبدأ قصتها مع ذاك المصري هناك؟..زفرت بعمق، حينما رأيت إحدى خادمات القصر تخبرني بطلب خوري لي مرة أخرى. دلفت للقصر مرة أخرى، وقد وجدته يذرع البهو بعصاه الأبنوسية، وشعرت أن ثمة خطب ما.

حدق لي بعيونه اللامعة كعيون الفهد وقال:

- اسمع يا نادر.. ضع عينك وسط رأسك، لا أريد مشاكل، وساضطر لمغادرة بيروت لمدة أسبوع على الأكثر، للسفر لباريس.

كانت عادته أن يخبرني بالوجهة،لكن دون التفاصيل. وقبل أن أرد:

- هذه المرة لن تكون في صحبتي، بل ستبقى من أجل ناتالي. هذه الفتاة باستطاعتها خداع طاقم الحراسة كله.

ارتسمت على وجهي ابتسامة عابثة، لم تتجاوز ثوانٍ، إلا أنه لاحظها، فاستدركت:

– إنها حفيدة خوري يا سيدي، ماذا تتوقع؟أومأ برأسه لأنصرف، عدت للمترل، وسمعت صوت فدوى يهذي.. فاقتربت منها، وقد ارتفعت درجة حرارتها بشدة، سألتها برفق:

– فدوى.. هل تحتاجين لطبيب؟

هتفت في بضعف:

– اذهب.. أنت كريه.. أريد بسام، هو شقيقي الحقيقي.

أغمضت عيني، وكظمت غيظي، وأنا أقول:

– وهل طلبت يومًا أن أكون شقيقك؟ هل نسيت أنك ابنة الشهيد، وأنا ابن الخائن؟

تركتها، وإنها غالبا مصابة بقليل من البرد، ولن يضيرها أن تتألم قليلًا، جراء لسانها الطويل.

***

عودة لشادن:

غادرتهم، ودلفت بسرعة لغرفتي، وغيرت ملابسي، ثم أغلقت الأبواب، وصليت، وقرأت ما تيسر لي من القرآن الكريم، واطمأن قلبي المتعب، بعد طول انتظار

حينما أتى الصباح، استيقظت على صخب، فنظرت من الشرفة، لأجد العجوز يرحل في الفجر، ومعه حقائبه. غمزت لنفسي..

– ترى زهق وقرر الرحيل؟

توضأت، وصليت الفجر. كان الجميع نياما بعد رحيل خوري، وقد بدأ الصبح يتنفس، فعدت لشجرة الأمل مرة أخرى.. ثمة جلبة عند البوابة الرئيسية، وشبه عراك. يا إلهي!.. إنه بسام.. ماذا يفعل؟ ويبدو أنه يعنف نادر في غلظة، وقد تركه يدخل، ثم يهرع إلى البيت. ثمة خطب ما!.. وقد هرعت في أثره لحجرة فدوى، وبسام يجس نبضها مرتاعًا، وقد أزرق وجهها في شدة، ونادر يقف محتارًا، ولا ينبس ببنت كلمة.

دموع على نهر العاصي

فدوى مرة أخرى

ارتفعت حرارتي بشدة، وقد حاول نادر إبداء بعض التعاطف، لكني فقدت الأمل فيه منذ زمن بعيد. فنادر الطيب الحنون قد ضاع منذ سنوات. روحه مقبورة هناك في ظلمات القبور مع آلاف الضحايا ليلة المجزرة، وما هذا إلا شبح إنسان، يتمسك بالحياة لأجل لا شيء، فلم أكن أعني له سوى هما، ولم يظهر لي أي تعاطف في يوما ما، حتى أن النقود التي صرفها علينا أنا وبسام على دراستنا في القاهرة اعتبرها دينا، رده بسام منذ أعوام قليلة، وتقبلها دون أدنى تردد، وحتى زواجي المرتقب من بسام، نظر إليه باستخفاف وسخرية.

يومها أشحت ببصري، وأنا أمسح عبرات دفينة، تحرق عيني.. كيف لم تسأل يوما يا نادر كيف بدلت موقفي من بسام؟ هل تتخيل يا نادر أن الشقيق يصير حبيبا؟.. ألا تعرف أيها الشقي أنه محال؟

صارت الحمى شديدة، وأنا أغوص في ظلام، وثمة وجه حبيب يضئ لي.. يمسك يدي عبر المروج يوم كنا في نزهة على شاطئ العاصي.

كان يصرخ بجنون وفرح

– أحبك فدوى.. أحبك فدوى..

وأنا أضحك بمرح، وأبكي في نفس الوقت من السعادة.. ليتني ما بكيت، فقد كان نذير شؤم.

مازالت كلماته تدق في قلبي

"يا صاحبة السمو.. هل تقبلين زواجي" وهو ينحني وقد زاد خجلي. و..

ثمة أصوات حولي.. "حرارتها مرتفعة".. شيء بارد على جبيني.. أغوص مرة أخرى في ظلام لا نهائي.. خيل لي أني أرى شادن، وهي تربت على وجنتي.

حينما أتى الصباح، كان هناك مستلقيا، وقد نمت لحيته. يبدو أنه لم يذق النوم منذ ليالٍ.. نظرت إليه غير مصدقة.. ماذا يفعل في حجرتي؟.. هتفت بصوت ضعيف:-

- أيها التعس اذهب..

اغمضت عيني في رجاء أن يكون حلمًا.. وهمًا.. جنونًا،إلا إنني أجفلت، وصوت بسام الحنون، وهو يمسح جبيني، وأنا أفتح عيني في ذهول، وعيناه تتراقص فرحا، وهو يقول:

- استيقظ يا دكتور كارم.. استيقظ، لقد أفاقت فدوى.

تسارعت نبضات قلبي وهو يضع سماعته الطبية، ثم يقيس درجة حرارتي مغمضا عينيه، ثم أشاح ببصره لبسام..

- اطمئن.. تجاوزنا مرحلة الخطر.

اقترب بسام مني، وهو يمسك بيدي..

- شكرا لك يا كارم..لن أنس أبدا جميلك، لقد تركت كل شيء، ومكثت بجانبها ثلاثة أيام، لم تذق خلالها النوم.

ربت كارم على كتفه..

- إنه واجبي.. لا شيء يذكر، نحمد الله أنها اتصلت بي، فقد كانت حالتها متدهورة للغاية.

ارتعدت وبسام يدير ظهره وهو يقول:

- كان أولى بنادر أن يفعل.. لقد اتصلت أنت بي بدورك.. لا أحد يتابع مرضاه هكذا.. عن جد لن أنسى جميلك.

أومأ برأسه وهو يقول:

- لا جميل بين الأصدقاء..

ثم أكمل:

- سآتي في الغد بعد الظهيرة.

ثم أعطى لبسام ورقة بها عدة تعليمات، وقد دخلت شادن تلك اللحظة، لتنير وجهها ابتسامة وضاءة، وهى تربت على جبيني وتقول:

- سأتابع فدوى.. إن بسام متعب، ولم ينم عدة ليال..

لفظة بسام دون ألقاب أقلقتني، إلا أن قلقي ضاع في نظرة الحزن، التي ملأت عيني كارم، وهو يلقي عليّ نظرة أخيرة، لم يستطع منعها قبل أن يغادر.

إني متعبة، وقد ترك بسام الغرفة ليوصل كارم لسيارته، وقد جلست شادن جانبي، ولم تفتني نضارة وجهها المليح وهدوئها، ونظرة الفرح في عينيها، التي أرجعتها لسفر خوري، وخشيت أن أرجعها لسبب آخر.

***

شادن تكمل:

لقد تجاوزت فدوى مرحلة الخطر..لم أنس صراخ بسام عند البوابة، وهو برفقة دكتور كارم.. وقد أمسك بتلابيب نادر، الذي ألجمه منظر شقيقته، وقد شارفت على الهلاك، وكأنهم لا يسكنون نفس البيت.. تبادل بسام مع الدكتور على مدى ثلاثة أيام رعايتها، وكنت أزورهم بين الحين والآخر، أحضر لهم بعض الطعام، الذي تعده خديجة وتناولوا اليسير منه.. لقد ذكرتني رعايته لها، وخوفه عليها بأبي كثيرا، ولا أنكر أنني تسللت خلسة وبهدوء، كي لا أزعج فدوى، فوجدته يغفو على الكرسي أمام سريرها، وقد نمت ذقنه، مما أكسبه ملاحة فوق وسامته، وثمة خصلة نافرة سوداء على جبينه، وقد أغمض عينيه في سكون، مما أتاح لي أن أنظر مليا لوجهه، بأنفه المستقيمة، ووجنته المرتفعة و..

لم أنتبه لصوت خطوات نادر يقف فوق رأسي، يراقب المشهد بفتور. ارتبكت تحت نظراته الصقرية، وقلت وأنا أمسك بترمس الشاي وبعض الشطائر، وقبل أن أتفوه بكلمة، استدار على عقبيه، وصفق الباب.

استيقظ بسام على وجهي المحمر وأنا أرتعش.. ذهل لوهلة، ثم أمسك الشاي والشطائر من يدي، وهو يرقب عبر النافذة نادر يمضي في عصبية واضحة. أخرجني صوته من خوفي وهو يهمس:-

- اجلسي شادن.

قلت بارتباك:-

بعض الشاي والشطائر صنعتهم خديجة.. كيف هي؟

قال وهو يرتشف قليلا من الشاي..

- لست أدري شادن.. لست أدري.

كان وجهه متألما، ودكتور كارم يدلف عبر الباب، ويتفقد المريضة الغالية. سكبت له كوبا من الشاي، تناوله وهو يقول لبسام:

- اذهب لتريض جسدك قليلا يا صديقي.. سأبقى أنا معها.

اعترض بسام، لكن كارم قاطعه..

- بالله عليك.. ليس لي القدرة على عيادة مريضين عزيزين في وقت واحد.

وربت على ظهره، ولكن كان ينظر عبر النافذة لظهر نادر، الذي وقف مراقبا كالصقر، يستمع لأقل همسة.

حسم أمره بسرعة، وهو يضع كوب الشاي، متجاهلا الشطائر.

- شادن.. تعالي.. لي معك بعض الحديث.

أصابع متشابكة وهمسات واجفة، وجنات حمراء يشوبها الخفر.. بنات مصر و النيل.. أشياء لا تمت بصلة لحياتي هنا..بغتة أفقت، تحتُ الشاب صاحب الرواية ينتظر المترو..هل أنا هنا في انتظار المترو أم في انتظار لحظات من حياتي..

شريط الذكريات.. الشاب عابس اليوم، والرواية التي يحملها تزداد تمزقًا تحت إبطه يحاول أن يبدوا بمظهر اللامبالي ولكني أدرك أنه يتخطف نظرات نحوي.هل يبحث في وجهي عن سر الحياة.. دائمًا كنتَ تقولها لِيّ يا حارون إن وجهي يحمل أسرارًا و أسرارًا، وإن عينيّ تحملان البشر أن يبحروا فيها..هناك ملامح لا تنسى، وملامحي أنا لا تنسى..آه يا حارون!

.. آه يا أخي!

ها نحن معًا نجوب القاهرة ونتخطف من ليلها المشاغب أحاديث الكبار، ها نحن نمر على بيت ياسمين تحدثني عنها وأحكي لك عن سهير، وتحكي لي أن الحب ثمرة الحياة أم أن يولد ناضجًا أو يموت في حياة عثرة متخبطة.. ياسمين كانت الغصن الذي يمد أرضك بالحياة..

عندما تزوجتْ رفضتَ أنتَ أن يكون لك حياة في وطن يرفض أن يعطيك حقك في أن تتزوج من تحب وننجب أطفالاً يحصدون ما زرعتَ.. دائما كانت أرضك بكرًا يا حارون، لكن عندما اكتشفتَ بغتة أن أرضك البكر ليست بكرًا، وهناك من شقوا بطنها وأخرجوا طفلك ملوثًا مشوهًا للحياة، قررت الخروج. كم كانت حياتك صاخبة ومتحركة..كم كانت آلامك تفوق احتمالنا نحن.. ما زرعته

فيّ يا حارون مات ككل البذور التي بذرتها طوال حياتك حتى موتك.. آه يا أخي!

الآن وأنتَ هناك، هل مطلوب مني أن أستعيدك في داخلي أن أشق لنفسي طريقك أنتَ، الطاغوتي يساومني لا يعرف أنه بذلك يخرج الذئب المتوحش داخلي.. يخرجك يا حارون بكل متناقضاتك وصغائرك و أفكارك المتوهجة، يخرجك أنتَ، سوف أعيش بأفكارك لمدة ليست بسيطة.. خروجك اليوم من داخلي لم يكن يسيرًا أو سهلاً، بل كان أشبة بلحظات الميلاد الجديد و الاحتضار.. يموت فؤاد بداخلي الآن، يموت بكل آليته، ويعود في صورتك أنتَ، كم كنتُ أتمنى أن تكون بجواري وهو يعرض صفقته علي..الطاغوتي حوت يا حارون.. حوت ليس له مثيل.. سأحكي لك يا صديقي..

سأحكي لك بالرغم أنك لم تكن معنا عندها، ولكن روحك كانت معي، ودمك كان يجرى بداخلي..

أصر بقية الرجال علي أن تستمر في الخطة فلم يتبق الكثير.. خرجنا من أنفاق المترو للخارج.. الخارج الذي كدنا أن ننساه .. أتتذكر.رقم التليفون الذي نحتفظ به .. أتتذكر.. قال الرجل لا يجب أن نتصل به ثانيا في هذا الرقم؛ فموتك يا صديقي سبب له مشكلة؛ بعد أن وجدوا رقم التليفون في جيبك، ولكنه قال:

خذوا هذا الرقم الجديد واتصلوا بي..

حاولنا بعدها الاتصال بالرجل عدة مرات، ولكن دائمًا كان جرس طويل دون رد..الخطة أصبحت قاب قوسين من النجاح أو

هو يعلم أني أنتوي الرحيل.. آه يا لوسي يا ابنتي كم أفتقدك.."

وورقة قد ضاعت معظم أسطرها ولم يبق منها سوى:

"علمت أنه سيلحق ابني الصغير بلوسي في المنفي،كما كنت اسميه. جادلت غسان كثيرا، لكنه لم يأبه لي.. رد بتأفف:

- خائنة مثلك لا تستحق سوى أن أبعد عنك ولديك.

آلمتني الكلمة أنا لم أفعل.. لم أخنك غسان. سمرني في مقعدي.. لقد أطلعت على أشياء تكتبيها.قلت كالمذعورة إنها كلمات..مجرد كلمات.

سألته في خفوت: أين أوراقي؟

قال بتلذذ: مزقتها.

بكيت وبكيت.. هذا التعس مزق صفحات من عمري يا لوسي.. مزق تاريخي.. مزق مشاعري..

إني أكتب لك القليل خلسة منه، حتى تفهمي.. لقد ضربني اليوم كثيرا، حتى أدمى جسدي، حتى إيلي المسكين.. لقد أسال الدم من أنفه.. هو لم يحبه أبدا.. أحبك أنت لوسي، لكن بطريقته."

وورقة أخرى تحمل اعترافا فظيعا

"خنته اليوم مع أحد حراسه.. لوسي، ليس حبا في الخيانة، بل أملا في الحرية، حتى يساعدني على الهروب.

سأرحل لوسي سأرحل سآخذ ابني، وأرحل.. لقد ضربه خوري مرة أخرى اليوم.

لا أعرف مكانك حبيبتي، لكنك ستعلمين مكاني بباريس.

تركت لك هذه الوريقات في حشية البيانو، لأنك الوحيدة التي تعرفين قيمته، ليس كقطعة أنتيكا أنيقة، يضمها قصر الخوري."

ثم أوراق وعبارات لم أفهم منها شيئا

صدمني ما قرأت، وآلمتني صورة الطفل الحزينة، وتساءلت أي نهاية حدثت لك سيلين.

أي مصير كان مصيرك أنت والطفل المسكين.. هل قتلكما خوري أم ماذا؟

إن صورتكما المكللة بالسواد تنبئ بموتكما.. لكن كيف؟

كانت جوجي كعادها في المطبخ منهمكة في إعداد الطعام، تسللت إليها خفية.. رحبت بي. مازال الوقت مبكرا على طعام الغذاء، ضحكت..

- يبدو أن ثمة شيء شهي لنا اليوم.

- نعم حبيبتي.. أعددت شيئا مميزا لفدوى وبسام

ثم غصت..

- أعلم أنك تحبينهما كثيرا، لكن جدك لن يحبذ هذا، وقد يغضب كثيرا.

اتكأت على الحائط أغمم في شرود:

- إلى أي مدى يصل غضبه؟ هل سيقتلني كما قتل سيلين وابنه؟

كان رنين الملعقة التي وقعت على الأرض يكسر هدوء القصر، وجوجي تأخذني في حضنها في رعب.

– لا تلفظي اسم سيلين حبيبتي رجاء.

نظرت لها دامعة..

– هل قتلهما جوجي؟!

مسحت دموعي..

– لا حبيبتي لم يفعل.. لكن..

– لكن ماذا؟!

نظرت حولها جيدا، وكأنها تخشى من يتلصص.

– لقد انتابت سيلين حالة من الألم، وقد حاولت الهرب مرارا، ولم تفلح، ثم ركبت سيارتها، ومعها الصغير وخوري يومها. كان يقهقه كالشيطان وهو يقول هيا اهربي.. ترجته كثيرا، وقبلت قدمه والصغير يبكي في السيارة أن يتركها ترحل، لكنه رماها بقسوة، وقد تعلق بصرها بالباب الحديدي المغلق، وعندئذ اتخذت قرارها.. ركبت سيارتها، وبسرعة ودون أدنى توقع، قادت السيارة، واصطدمت بالباب في قوة. كان حادثا مريعا.

ثم عادت لطناجرها تمسح دموعها السخية، وصوتها مختنق:

– لكنه لم يقتلها.

ضحكت في سخرية..

– يا للبشاعة.. لم يقتلها!.. يا له من قاتل.. يا له من جبار.. يا له من طاغية..كم أود أن أقتله.

لم أسمع صوت جوجي محذرا وأنا أنصرف، ولم أعِ أن هناك من كان يتلصص، ومن يحصي أنفاسي وخطواتي، ومن ينتظر وينتظر..

تمر ونحن مسجونين هنا، نخضع لابتزازه، يستخدم قانون فرق تسد، ولكن لا فائدة.. دمك حفر داخلنا إصرارًا بلا حدود، حتى عندما امتنعنا عن الأكل ثلاث أيام بعد موت سليمان؛ حتى يخفف عنا عذابه اليومي واستجواباته التي لا تنتهي، وشتائمه التي حفظناها من كثرة سماعها، لم يطرف له جفن.

تعاطف معنا ضباط المركز الأجانب ولم يتعاطف معنا هذا المصري، الذي شرب من ماء النيل!!

قال لنا وقتها:

- موتوا يا أولاد الزواني، ولكني أشك أنكم ستموتون، المصريون لا يموتون جوعًا..أنتم بقر أصلاً ومجموعة من الحيوانات.

وعندما حاول مرة أخرى معي وفشل قال لي:- سوف تجدهم بانتظارك هناك بمصر يا بطل.. يا ابن...يا ابن...سوف أوصي عليك شخصيًا زملائي هناك يا حبيبي..

لن أحكي لك عن ذل شهرين تحت براثن الضابط المصري يا حارون..

لن أحكي لك كم البشاعة التي استخدمها مع سليمان؛ ليخرج من بطنه الخمسة آلاف دولار، التي كان قد طواهم في ورق سوليفان وصغر حجمهم؛ ليكون في حجم برشامة صغيرة وبلعها، كاد سليمان يموت يومها يموت على المبلغ؛ الذي كان يتصور أنه سيبدأ به حياته

في أوروبا؛ ويموت من الألم الرهيب الذي مزق أمعاءه وهم يستخرجون المبلغ من بطنه..

لن أحكي يا حارون.

جوس الهولندي الضابط ليتك كنتَ تراه... كان يمدنا بالطعام والسجائر، والمصري يمنع عنا الطعام والهواء.. أتتصور يا أخي؟!..أتتخيل هذا!!

لن أحكي أيضا..

كيف عدنا إلى مصر مذلولين وشبح الفشل يطاردنا..

لكنني كنتُ مصرًا على العودة إلى هنا مرة أخري.

فهنا تركتُ ميراث أجدادك يا حارون ،ويجب أن أعود لأجله ولأجل إنسانيتي؛ التي أهدرتْ على أبواب مصر، وها أنا هنا الآن يا حارون..

عبد الباسط لم يبخل عليّ بالعودة هذه المرة بعد أن شهد رجولتي..ولم أشهد ضده في التحقيقات.. عدتُ إلى هنا ولم أعد، عدتُ بأحلامك وأحلام سليمان، عدت وقد قررتُ أن لا أعود لمصر مرة أخرى، وأعيش كآلة صماء..

اليوم يريد الطاغوتي ما يريد، كم هي الأهوال يا صديقي!.. كم هي الأهوال!..

لم أدر متى رحت في النوم، وهل حديثي معك كان حلمًا أم حقيقة؟!

- ماذا يجرى هنا؟

ثم قالت آمرة:

- من سمح لكم بالدخول؟..

سمعت بسام يقول محذرا:

- إنها متعبة.. اتركيها، ولا تزعجيها مطلقا.

شيء في نبرته الواثقة ألجمها..

ولبثت في مرضي الغريب يومين..لم أكن أعاني علة ما، ولكني سعدت باهتمام بسام الدائم بي، ولم يضايقني سوى نظرة فدوى الحائرة. كنت أسعد برفقته الصباحية، حتى الصباح الأخير، أخبرني إن عليه العودة للعمل، ووعدني بالزيارة في الأسبوع المقبل. حينما أغلق الحارس البوابة خلفه، شعرت أن روحي طارت شعاعًا معه.. وهربت من نظرة فدوى المؤنبة.

لم أملك سوى الهرب، وتجنبها بقية اليوم.. إلا أن يومنا الرائع انتهى فجأة بوصول خوري الطاغية.

أحضر لي كثيرا من الهدايا والملابس، ولكني اشمأززت منه، وتذكرت سلين وإيلي، فصرخت في وجهه، وكان هذا خطئي العظيم، الذي دفع ثمنه غيري.. بل ودفعت أنا الثمن لاحقًا.

كان هناك نادر.. دائما يحصي ما سماه تجاوزات. وكانت هناك جانيت، عينه الساهرة عليّ حتى الفجر الأخير، الذي كنت أسجد فيه في صلاة الفجر، لأجد ذلك السوط القاسي ينهال على ظهري، وأنا

أصرخ وأصرخ، حيث هرعت في أثري فدوى وخديجة، تمنعان الطاغية عني، فقد اكتشف سري.

توقف فجأة عن ضربي، وهو ينظر بغيظ للمسكينتين، وهو يشير لنادر، الذي وقف محتارا لبرهة، ضاعت أمام نظرة خوري القاسية، وشماتة جانيت الواضحة. واتخذ قراره.. قرارا لا يتخذه سوى شخص جبان، لا انتماء له سوى المال.. فقد ربط شقيقته وخديجة بالحبال، وألقاهما في قبو المنزل، بلا حول ولا قوة.

الضحايا

مازلت تلك الأحداث الرهيبة تدق في رأسي، حتى بعد مرور السنوات..تسبب غصة في قلبي.. فقد ارتعت لمرأى فدوى وخديجة، وقد تم تكبيلهما بالحبال، ورميهما في قبو القصر. وحبسي في غرفتي دون طعام أو شراب. كنت أسمع بين الحين والآخر صراخ فدوى الضعيف، ونحيب خديجة، وصوت نادر متوعدًا.

يومان قضيتهما في حبسي، لا أعرف ليلي من نهاري، دون أن يغمض لي جفن. فقد كنت أصرخ وأصرخ، حتى أتساقط من الإعياء.. وإذا بالباب يفتح، فأقف غير قادرة على رفع جسدي، ولكن وجه توني عراجي المتشفي، وملامح نادر الصارمة، والابتسامة الشامتة على شفتي جانيت..كل هذا يمنحني القوة، لأنهض في اعتداد، لم يفت العجوز الغاضب، فقد ضيعت كل خططه على مدار عام أو يزيد..لم تردعني النظرة الصاعقة في عيني العجوز، لكن ما كسرني وحطم ذاتي هو فدوى وخديجة. فقد تعرضت كلتاهما للصفع بقسوة وعنف بالغين، تحمل بكل تأكيد توقيع نادر الناصري، شقيق فدوى الخائن.

كان قد جذبني، بإيعاز من العجوز، بقسوة من شعري،حيث القبو الرطب، لأجدهما مكبلتين بحديد النافذة، وفي حالة يرثى لها، وندت عن فدوى صرخة ملتاعة، وهي ترقب الجسد المتكوم، وقد أوسعه الحراس ضربا، وشجوا رأسه، والدم ينزف منه بغزارة.

لا ليس هو..

لا لا ليس بسام!

إنه بعيد.. ماذا يفعل هنا؟ لكن كعوب الحراس تغوص في جسده المسجى، والدم النازف، وصريخ فدوى.. كل هذه الألوان والصخب..كل هذا الظلام والظلم من أجل ماذا؟

أن أصبح ناتالي؟.. لقد تعالى صوت الطاغية "اقتلوهم"، وهو يجذبني من شعري..

صرخت:

– لا..جدي.. لا لا لا أنا ناتالي.. لا تقتلهم..أنا ناتالي.. أرجوكم.

نظر لي لوهلة، وهو مغمض عينيه، وقد أشار لرجاله أن يتوقفوا عن إيذاء بسام..وهو يشير مرة أخرى لأذنه..

– هيا يا آنسة.. دعيني أسمع ما قلته مرة أخرى.. هيا يا آنسة اطربيني.. اسعدي مسامعي يا ناتالي الصغيرة..

غص قلبي.. لكن هؤلاء ما ذنبهم..

– أنا ناتالي غسان خوري يا جدي.

ضحك كالشيطان..كالليل الأسود..كصوت سحيق من الجحيم. ضرب أسوار العزلة حولي من جديد.. أسوارا حصينة من فولاذ.. ومن خلف أسواري راقبتهم في عربة قديمة، تقودها فدوى الضعيفة، حيث يرقد بسام ينزف بغزارة، وتنتحب خديجة بصمت، طردى قصر خوري الطاغية.. ليتني كنت معهم.

أغلقت أبواب القصر خلفهم، وخلف الأبواب،ولدت فتاة أخرى.

فتاة قاسية.. لا قلب لها، تحمل أخطاءً اقترفها غيرها، وغادروا القصر إلى غير رجعة. منهم من ذهب في رحلة أبدية، ومنهم من ظل رحيله غامضا.

ولدت ناتالي خوري، قربانا لمن ساعدوها يوما، ودفعوا ثمن شهامتهم.كان هناك نادر، وقد استعاد مكانته..كانت هناك جانيت الباردة، وقد أمنت مأواها في القصر.. وكان هناك مريول جوجي، مغبرًا بالطحين، وطناجر خاوية، وقلوب صدئة، ونفوس مريضة، وصور مكللة بالسواد، وآمال مدفونة، وضحكة سرقت مني، وقلب لم يعد بمقدوره أن يخفق، أو أن يتذكر، أو أن يدري كيف هو.

لم أسأل عن مصيره..كنت أعلم أن فدوى هناك، وأنه سينعم برعايتها، فزاد حقدي عليها.

أعني حقدها هي، ناتالي، فلم تملك سوى الحقد في قلبها.

وحتى حينما عاد بعد شهر عبر الأسوار، خلسة من الحراس، وقد ضمد جبينه، وبان عليه الإعياء، وقد تسلق نافذة غرفتي، لم تتح لي الفرصة لخفقة قلب.. ظهر نادر بسرعة البرق، فقلت له ببرود:

– السيد بسام أتى لزيارة صديقته شادن!..

ثم رسمت ابتسامة ساخرة مقيتة صفراء..

– معذرة عزيزي بسام.. لا وجود لشادنك هنا.

كانت لعبة،واستمتعت بها..أنا، ناتالي..ثم ضحكت بطريقة مسرحية.. معذرة بسام.

لقد تحولت اللعبة، وصدقها الجميع، حتى أن جدي استشاط غضبا.

كان بسام وقد وقف مذهولا،ونادر ينظر إليه بسخرية وهو يردف:

– إنها الحقيقة بسام.. صدقها.

ثم يربت على بسام المذهول بخفة..

– لا داعي لامتطاء الأسوار، فأنت مرحب بك في أي وقت.

نظر لي بسام مرة أخرى، غير مصدق، ولكن ناتالي كانت تقف هناك، صلبة ومستعدة.

ناتالي خوري، حيث ولدت من جديد،ترقب بسام ينصرف بفتور، وهي تغمغم بحقد:

– اذهب ..فدواك في انتظارك.

ليلة عيد الميلاد السوداء

لقد بهت بسام وذهل، خاصة وأنا أشير للحراس أن يخرجوه، وأنا أقول بغطرسة:

– لكن دون إيذاء، فليس لآل خوري أن يؤذوا ضيوفهم..

مازالت شادن الطيبة تقبع في ركن ما مني.. قلتها وأنا أستدير، وأدلف للقصر، ثم إلى حجرتي. كنت أرقبه من وراء زجاج النافذة يمضي الهوينى، منحني الظهر، وقد تلبدت السماء واكفهرت، ونزلت الأمطار كالسيول، لتبلل قميصه الخفيف.

وضعت يدي على الزجاج، ألتمس البرودة، عليّ أشعر بشيء.لم أجفل وصوت جانو يهتف من خلفي، وهى ترنو إليّ ساخرة:

– احترسي يا صغيرة، لقد عصف الحب يوما بأمك وهى في سنك، فأضاعها.

استدرت إليها، وأنا أنظر إليها نظرة ذات مغزى، ثم جلست أمام المرآة، وأنا أمشط شعري، وأقول لها:

– اخبريني عن أمي جانو.. يبدو أنك كنت تعرفينها جيدا.

أجفلت وهي تحاول الانصراف:

– لا أعلم عن أمك الكثير ناتالي

مرت الأيام وقد توقف المطر،ثم عاد بثلوج قوية، غطت كل شيء، حتى الأبدان الشائهة.

كانت ليلة عيد الميلاد، ليلة باردة مرتعشة، ملبدة بالغيم الرمادي. تطلعت في المرآة للصورة المنعكسة، وتلك البراءة التي غادرت عيني وشعري الأشقر المصبوغ، والقرط الصاخب في أذني، وفستاني الأرجواني القصير. فتاة أنيقة تنتمي لهذا القصر الكئيب، تحفظ جدرانه صوتي، لينضم لصوت ضحايا آخرين.

تنهدت في خفوت، محاولة تذكر ماضٍ بعيد لفتاة.. لصبية أخرى سعيدة، وكأن عاما وبضعة أشهر قد صارت عشرات الأعوام أضيفت لنفسي المتعبة.

كان خوري يقف في الأسفل، ومعه توني عراجي. واضح أن ثمة مشكلة ما، فقد بات العجوز غاضبا، وقد أنهى غضبه ببصقة على وجه كلبه الأليف توني، الذي مسحها في برود، وهو يسمع باقي الشتائم.

ضحكت في سخرية وأنا أهمس:

– كان لابد أن تتلقى بعض دروس الإتكيت التي تتحفني بها يا خوري.

تنبه لوقع خطواتي على السلم، فتهللت أساريره، وهو يقول:

– ناتالي حفيدتي الجميلة.

أومأت في خفة، وأنا أنظر نظرة ماكرة، تعمدت أن يلحظها توني على مكان البصقة، فضاقت عيناه في ضيق.. أمسكني خوري من ذراعي برقة، لندلف بالسيارة، وهم توني أن يجلس في المقعد الأمامي، فصرخت في حدة

- لا لا لا!

نظر لي العجوز متسائلا، فقلت في غطرسة:

- لن يركب أحد عمالك معنا.

متغاضية عن كون توني مدير أعماله، الذي وقف أمام السيارة محتارا، فصحت في غضب للسائق:

- أغلق الباب.

ففعل.

بهت العجوز، ثم أفترت أساريره عن ضحكة شيطانية ساخرة، وهو يردف:

- أنت فعلا حفيدة غسان خوري.

تجاهلته، خشية أن يرى الدمعة المترقرقة في عيني، وأنا أستغرب فيّ هذا الشر غير المبرر لأذية الغير، وتطلعت للمشاهد التي تمر بلا اهتمام.

أغوص في أفكاري عن أبي، ويعصف بي الغضب.. كيف لم يبحث عني.. هل كنت عبئا ثقيلًا حتى يتخلص منه؟ أعرف أنه في الثامنة والثلاثين من عمره.. مازال شابا.. لكنى ابنته.. هل تقبّل خروجي من حياته، كما تقبّل خروج أمي؟!

أتساءل أين أنتِ يا لوسي؟.. أين أنت؟.. ثم يتراءى بسام وفدوى، وقد تلاشيا من حياتي، وعباراتي القاسية، التي صدقها بسام، جعلته يلفظني من حياته. الجميع لفظني، ووقعت في قبضة الجبار.

غصت في مقعدي، والكآبة تأكل صدري، ثم ابتسمت في مرارة.. فتاة جاحدة..لديك أشياء لم تحلمي بها..فقط لو يأمن العجوز مسلكي.. هو مازال يشك بي رغم كل شيء.. نوعا ما يحيره تغيري السريع.. ألمح في عينيه رضاه عني، لكنه مازال مصرا على سجني، عدا المرة الوحيدة في الأسبوع الماضي، الذي سمح لي بالخروج برفقة جانو ونادر للتبضع.

كنت أرقب الجمهور عليّ أجد بسام بينه.. لكنه تلاشى وتركني.. أستيقظ من أفكاري على يد العجوز، وقد توقفت بنا السيارة أمام بناية ضخمة، لم أتبينها في البدء، ثم عرفت وعيني تزداد اتساعا، فأغمضتها في ذهول..

إنه اختبار خوري الكبير..اختبار تشهده إحدى أكبر كنائس بيروت الشهيرة. توقفت في حيرة، وقد تجمدت قدماي، إلا أن العجوز سحبني من ذراعي، وأنا أنظر في لا وعي لنظرة توني عراجي المتشفية، وقد وصل في سيارة أخرى.

كانت نبضات قلبي سريعة سريعة.. وعرقي بارد، وعيني زائغة.. فاليوم أودع آخر خيوط تربطني بشادن، لأصير ناتالي خوري نهائيا.

"أنا ناتالي غسان خوري" همست ثم هززت رأسي في رفض..
"كلا.. شادن سميح محمود"

"بل ناتالي" وقد لاحت صورتي في المرآة..فأغمض عيني "بل شادن أيتها الغبية".

أرقب الوجوه في وجوم، وقد وقفت تلك الراهبة الجميلة، التي يبدو أنني رأيتها في مكان ما تبكي وتتكئ على الجدار. جلست في مقعدي، ودموعها تنهمر في غزارة، فإذا بخوري يشير لأحدهم، فيحاول إخراجها من القاعة، فترفض في غضب، وواضح أنه يطلب منها التوقف.

أنظر لخوري بألم.. أيها الطاغية دعها تبكي.. دعها تبكي لأجلي، لأنني لا أملك البكاء.

فإنك ستحول بكائي لدماء أيها الطاغية.. سحقا لك!

قرصت نفسي في ذراعي.. "اصمتي أيتها الجاحدة.. أنت ناتالي، فلتذهب الراهبة إلى الجحيم.. فليذهب الجميع للجميع.. أنت ناتالي خوري القوية الثرية، لست شادن الضعيفة الضائعة، التي لفظها الجميع.

كانت تتراءى على وجهي انفعالات أقرب للجنون، وقد علت الترانيم لتخدر أعصابي، وتبعث في جسدي نشوة..كانت رأسي تدور وتدور..

مازلت أذكر ليلة العيد.. ليلتي المترفة بالحلم والألم..

مازلت أسمع حثيث خطواتي.. صاخبة هادرة.. تقترب من الأب.. كانت الأجراس تكمل مشهد التأبين..

مراسم موتك يا شادن.. هيا ارحلي في سلام.. لتتقدس روحك في السماء..

أعطاني الأب خبزا بعد أن قبله.. أخذت القطعة في استغراب.. انتظر أن آكلها

ارحلى يا شادن.. ليتقدس اسمك في السماء..

ارحلى في سلام..

ثمة يد قاسية تغرس في لحم يدي بأن آكل قطعة الخبز..

– كلي ناتالي.. كلي.

أنظر إليه في ذهول، وهو يقول والعيون تتعلق بنا:

– كلي أيتها الحمقاء، لقد جعلتِنا أضحوكة.

أسأله في حيرة:

– ناتالي من؟.. ناتالي من؟..

أكاد أبصر في وجهه وحشا مرعبا، فألقي الخبز في وجهه، يلطمني الوحش في قسوة، فأخمش أظافري في وجهه، وتسيل دماؤه وهو يصرخ مذهولا، وأنا أصرخ في غل وهستريا..

اذهبى في سلام ..

وأهاجمه مرة أخرى، وقد أثارتني الدماء، وقد رفع شخص ما مسدسه في وجهي، إلا أن الراهبة الباكية أخذتني في أحضانها، وأنا أصرخ في هستريا.. دعها تذهب في سلام.

ثم تتلاشى الأرض من قدمي.. ويسود الظلام!

الحقيقة

بسام يحكي :

قابلت شادن اليوم، بعد أن تسلقت الأسوار خلسة من الحراس.. من هي هذه الفتاة التي قابلت؟ هل هي ناتالي؟..كأنني أرى خوري البغيض يظلل روحها.. لقد تعافيت بمعجزة، بفضل رعاية فدوى، بعد أن نزفت الكثير من الدماء.. هل تم إيقاعنا جميعا في لعبة فتاة حمقاء، لعبت تمثيلية سخيفة من أجل التسلية؟..عصفت الحيرة بي، فما رأيته بعيني هو صورة أخرى لخوري..صورة جديرة بحفيدة طاغية مثله.كان نادر هناك، لماذا عجزت عن ضرب الوغد، الذي آذى فدوى وخديجة من أجل سيده؟.. ألجمتني الفتاة التي رأيتها، وبكيت في أعماقي، وشعرت بسخافة موقفي.

هل كنت وهمًا يا شادن؟.. كنت أذرع الشقة البيروتية الصغيرة، وإياد يجلس أمامي، وأنا أحكي له، فغمم في شرود..

– يبدو أنها مريضة، لتنتحل كل هذا.

شردت في كلامه.. مريضة.. رن الجرس، فدخلت فدوى. مريح أن أرى وجه فدوى الحبيب وهى تدلف بالطعام.. لقد أسكنتها الشقة المقابلة، بعد تركها قصر غسان.

لاحظت شرودي، فرويت لها.. عقدت بين حاجبيها..

– كلا إن الفتاة تحاول حمايتك.

وقفت باعتداد..

- تذكر أمسيتنا الأخيرة بسام.. أعطتك اسم وعنوان أبيها.

هتف إياد مخالفًا فدوى..

- هي تكذب، ولن يضيرها أن تعطي أسماء وهمية.

لكن النظرة في عيني وعين فدوى، حينما أخرسته، هتف:

- هيا هيا اذهب يا بسام خلف الأوهام.

وقد كان.. فما هما إلا يومين، وكنت أدب دبيبا في شوارع القاهرة.

وجدت العنوان والشقة المغلقة، وقد تطوع أحد الجيران، ليخبرني إن السيدة العجوز قد توفت بعد سجن ابنها، واختفاء الحفيدة في ظروف غامضة.. علمت أن أباها تورط في شيك بدون رصيد.

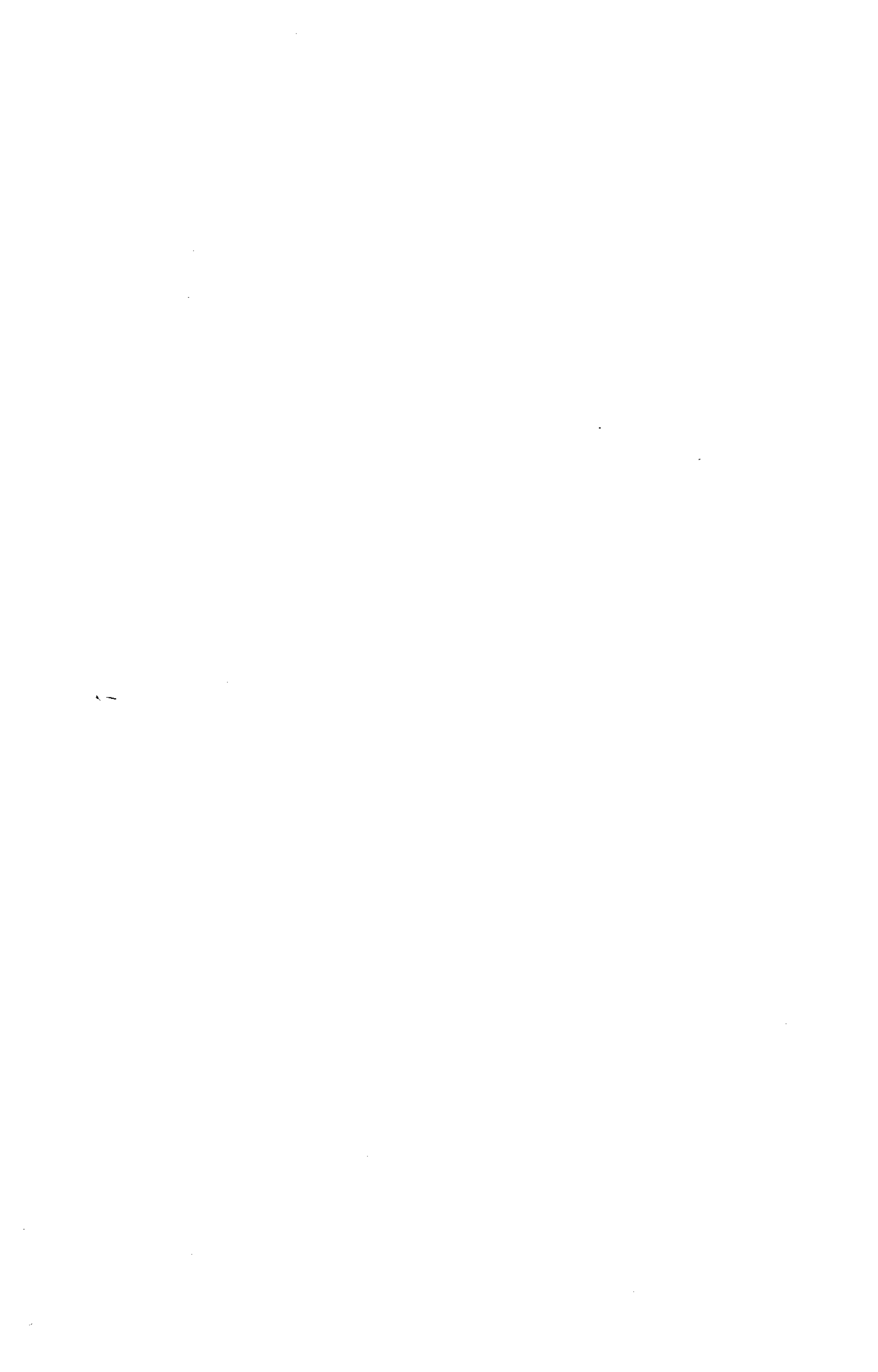
كنت جد مجهد.. جد فرح.. إن شادن حقيقة لا كذب، ولم يمنعني إجهادي أن أزوره في سجنه.

سميح محمود كان لا يزيد عن الثامنة والثلاثين.. يبدو أنه أنجب ابنته في سن مبكرة.زرته..كان الرجل يخبط رأسه في الحائط، وهو يصرخ أن لا علاقة له بالشيك، لقد حكم عليه بالحبس ثلاث سنوات، قضى منها عام يجتر الألم لوفاة أمه، واختفاء ابنته.. من الواضح أنه تعرض لمكيدة ما،وقد بكى بشدة لمعرفة أخبار ابنته.. عدت لبيروت على وعد بمساعدته.. عدت في ليلة عيد الميلاد لأجد

بيروت باردة، ترتعش أجواؤها،ولكن وسط هذا الغيم والبرد، كانت هناك شادن تصارع الحياة.

عدت لبيروت وكثير من الغيظ يتملكني، وودت لو أقتل خوري، ونادر، وكل الطغاة.. شعرت بالعجز والقهر، وأنا لا أملك لإخراج الرجل الذي لعب به خوري بمكر.. الرجل الذي يملك إخراج شادن من قصر الطاغية.. سميح الذي صار أقرب للجنون، وهو يضرب رأسه في جدران سجنه، ولقد وعدته بأن أخرجه. نظرت لسماء بيروت الغائمة، وقد عدت قبيل الفجر.. أمسك بجدار السور وأنا أتمزق.. دائما تعد بما لا تقدر عليه.

وعدت فدوى بأن تسعى دائما لسعادتها، لكنك تخاذلت عن تحقيق أحلامها في سبيل الحفاظ على اسم الجارحي.. وعدت شادن بأن ترجعها للقاهرة، وأن تعيد لها هويتها، ولكنك وقفت عاجزا.. نفس العجز الذي انتابني في البئر ليلة المجزرة.. الظلام يغمرنا، وفدوى تبكي في صمت، قد تشنجت أعضاؤها.. ونادر يتوعدها بالقتل إن لم تصمت.



على مدى شهور ،كنت أخرج من الدير بصعوبة بالغة.. كنت أريد أن أرى شادن خلسة، بمساعدة خديجة. ولأني أعرف سراديب القصر، كنت أدخل دون أن يدري الحراس، حتى هذه المرة التي وجدت نفسي أمام جانيت. لست أدري لماذا ظهر حقدها فجأة.. لقد صفعتني بقسوة.. أعلم أنها خائفة، فقد دفعت ثمن مساعدتي على الهروب من بيروت ثمنا غاليا.. كانت قبلا تعيش مترفة في رعاية أبي.. لكن بعد رحيلي، طردها بقسوة، ليس من القصر؛ بل من بيروت كلها. أعرف أبي أي شيطان هو حينما يتملك الحقد قلبه.. لا يسمح للألم أن يتسلل إليه، بل يسبقه بكل قسوة.. لم ينحنِ يوما.. هو صلب عديم الرحمة. لكن ماذا يبغي من شادن المسكينة.. لماذا يحولها لناتالي، التي غادرته منذ أربعين عاما.

لقد تبادلت معه حديثا قاسيا، فتوعدني بقتلها إن لم أبتعد عنها.. بل زارني في الدير، وقال إني لفظته من حياتي، بل لفظت الجميع، وأنه لا حق لي في ابنتي.. ولم ينس أن يذكرني، بكل قسوة، بأحداث طواها الزمن.. أحداث من شأنها أن تزيد الفجوة بيني وبين ابنتي.

زارتني خديجة بوجه متورم، وأخبرتني لأي جنون وصل العجوز، وما فعل بها وبفدوى وبسام.. بسام الذي مكث قرابة شهر في المستشفي.. لقد قرر خوري الحرب.. أعرفه حينما يقرر أمرا ما.. سيقتل دون رحمة.

ودعت خديجة، وطلبت منها مغادرة بيروت، فأخبرتني إنها ستذهب لبلدها في الشمال.. أعطيتها مبلغا ماليا سخيا،رفضته في

البداية من خادمة دير فقيرة.. لكن مازلت أملك الكثير من الأموال، التي تركتها لي سيلين. فرغم كل شيء استطاعت أن تؤمن قدرا من المال، حتى أبتعد عن سطوة أبي.. لكن المال لم يؤمن لي شيئا، بل عاد بي إلى بيروت مرة أخرى، إلى غسان خوري الداهية، حتى انتقم.. الانتقام الذي دفعت ثمنه في منفاي الاختياري.

يبدو أن سنوات السلام والارتخاء والانزواء قد أضعفت عزيمتي، وأوهنت قدرتي، فاستسلمت.. لعل سميح يتصل بي، كما دأب أن يفعل طوال هذه السنوات، دون أن يحرك ساكنا، أو يأتي لبيروت ويراني.. هل تراه كان يعلم؟.. هل سامحني؟ وهل هذا أمر يمكنه المسامحة عليه؟.. مسحت دمعة طفرت من عيني، وأنا أنظف المذبح، استعدادا لليلة عيد الميلاد.. كنت كاسفة البال، حزينة، حينما استدعتني الراهبة الأم. كان وجهها صافيا وهى ترنو إليّ..

– كيف حالك لوسيا؟

أومأت برأسي احترما للأم المبجلة، التي أمسكت بوجنتي، وهى تقول:

– لك اثنى عشر عاما هنا، ولم تنسِ أمر هذه الدنيا بالخارج.. إنك لم تحبي الرهبنة قط، فشهوة الدنيا بداخلك.

قاطعتها بصوت خافت:

– لكن يا أمي..

نظرت لي بعمق..

– إذا كنت تؤمنين بالطريق الرهباني، فيجب أن ينبع من أعماقك، وأن يترسخ فيك. إن كان الأمر هكذا، فلا تضطربي، إنما يحسن لك أن تصبري، وتصلي أن يكشف لك الرب الطريق الذي يريده لك.. ولكنك يا بنيتي نذرت نذرًا خاطئا، على أساس خاطئ، يفعله كل الذين يعانون من متاعب زوجية، أو أسرية، أو معيشية.. أو الذين يحضرون عقب صدمات عاطفية، أو الذين يرغبون في الإقامة دون الرهبنة.

نظرت لها في ارتياع، لكنها ربتت على كتفي بحنان..

– لن أطردك لوسيا الحبيبة.. لن أفعل أبدا.

ثم استدارت لتواجه النافذة..

– اجعلي الدير ملاذك، ولكن تذكري أن الرب موجود

عبارة "ربنا موجود" يسمعها الضعفاء فيطمئنون، ويسمعها الطغاة فيرتعشون.. لو كان عندهم ضمير.

تذكري أيضا..

"هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ (إنجيل متى ٢٨ : ٢٠)

تنهدت في طمأنينة.. ليت لي مثله أيتها الأم الحبيبة، فالألم سكن قلبي سنوات.. الرب موجود عبارة يسمعها الطغاة فيرتعشون، لو كان عندهم ضمير. لكن هل لأبي، غسان خوري، ضمير؟.. أي ضمير يسمح له بأن يجعل شادن هذا المسخ، الذي رأيته يدلف عبر باب الكنيسة عشية عيد الميلاد؟.. أين هذه الناتالي بشعرها المصبوغ، ونظراتها الثلجية القاسية من ابنتي الوديعة؟.. كرهت جبني وضعفي

وانغماسي حول ذاتي.. طوال شهر كامل لم أرها.. شيء فيها مات.. بكيت.. هل كان يجب عليك يا أبي أن تأتي بها هنا؟.. هل تريدني أن أشهد انتصارك الزائف؟ هل انتصرت يا خوري العظيم، وهى تفقد صوابها، وتمزق وجهك؟..أي مسخ صنعت أيها التعس؟.. هل انتصرت يا خوري الطاغية، وهى تهذي بجنون، وتصرخ بهستريا؟.. هل بهت، وأنا أقف ضدك، وأمنعك عنها؟.. لقد تركتها في منتصف الليل، في ذلك المستشفى البيروتي الشهير.. كنت سعيدة أن أرى الألم على وجهك، وأنت ترقبها بجسدها المتخشب خلف الزجاج، وكنت تعيسة على أمومتي التي تخليت عنها.. لكني كنت أعلم أن هناك شخص آخر يهتم بأمرها.. شخص كاد يفقد حياته يوما من أجلها.. شخص اسمه بسام، الذي عرفت عنوانه من خديجة، ولم أنتظر حتى الصباح حتى أستغيث به، لعل هناك أمل في أن تعود ابنتي.

إياد

استيقظت في هذه اللحظة على صوت رنين الباب، فوجدت بسام وقد عاد، ويبدو أن لديه ضيفا.. ضيف غير عادي على الإطلاق..

فما الذي يجعل راهبة تزورنا بعد منتصف الليل؟!.. كنت مازلت أطرد النعاس عن عيني، وأنا أتوجس الشر، فقد كان بسام بين الحياة والموت منذ فترة وجيزة، نتيجة اعتداء حرس خوري عليه، ولم تسلم فدوى هي الأخرى.. هما صديقاي منذ زمن بعيد، وأنا أدرى الناس بما واجها وظروفهم العسيرة، وليسا بحاجة لمشاكل فوق مشاكلهم.. لكن يبدو أن شادن، التي لم أرها حتى هذه اللحظة، استحوذت على حواسه ومشاعره. لقد حيرني كثيرا تقبل فدوى للأمر، وحيرني جنون بسام بها، وأنه ذهب للقاهرة، وكنت واثقا أنه يطارد أوهامه.

طردت هذه الأفكار من رأسي، وبسام يشير لي أن أجلس، وهو يقدم لي ضيفته الغامضة..

– لوسيا خوري

هززت رأسي غير مصدق..

– وهل لديها قرابة ما بهذا الأرعن خوري؟!..

لكنها حينما رفعت إلى عينيها المتورمة من البكاء، ندمت على كلماتي.. ثمة خطب ما بهذه الراهبة الجميلة، التي مازلت في ريعان شبابها، وقد انفجرت الكلمات من بين شفتيها بنحيب متقطع..

- لقد انهارت شادن.. ابنتي ضاعت.. إنها ترقد متخشبة حينا، وتهذي حينا، وقد أعطى لها الأطباء حقنا مهدئة كي تنام.. تركتها في المستشفى.. لقد دمرها خوري أبي، في سبيل حلمه لصنع خوري آخر.

كان بسام يذرع الغرفة كالليث الجريح، وهي تحكي مشهد المذبح الكئيب، ثم ضرب يده في الحائط، حتى كاد يحطمها..هتفت به:

- رويدك يا رجل.. رويدك!.. اجلس بسام.. اجلس.. أرجوك.

وسطع رنين الجرس مرة أخرى، لتطالعني فدوى قلقة متسائلة، وهي تهرع نحو بسام قائلة:

- بسام لقد وصلت.. ماذا حدث؟ هل تيقنت و..

بترت عباراتها على مشهد لوسيا خوري، الراهبة الباكية،

وألف سؤال وسؤال يرتسم على وجهها.

وسط أكواب الشاي المعطر بالهيل، التي صنعتها عليّ أخفف قليلا من التوتر الذي يخيم علينا، والوجوم يسيطر على وجوهنا، انتفضت فجأة لوسي، وهي تكاد تسقط من الإعياء..

- كل هذا الشر من أجل ماذا؟ خطف شادن، وسجن سميح، وضربكم، وطرد جوجي.. كل هذا حتى يعيد ناتالي الضائعة!.. ألم يكفه ما صنع بنا؟.. ألم يكتف؟..

جاوبها بسام بصوت عميق يغلب عليه الانفعال:

- إن غسان خوري طاغية حقيقي، يصم سمعه ويخبو بصره عن مطالب الآخرين.. لا ينظر إلا إلى مطالبه وخططه فقط. اغفري لي سيدتي إن قلت إن طغيانه يقارب الجنون، وفي سبيله لن يتورع عن القتل والذبح.. اعتاد أن يبني مجده بالدماء.

غصت لوسي كثيرا وهى تضع كوب الشاي..

- لا عليك.. أعرف أبي.. وقد خبرت معه أهوالا جعلتني أنزوي عن الدنيا.. لكن شادن بحاجة إليّ مثلما سميح بحاجة إليّ..

قاطعها بسام:

- إننا في حاجة إلى مليون دولار لإخراج سميح من السجن.

ارتسمت على شفتي لوسي ابتسامة حزينة وهى تقول:

- لا تقلق.. سأوفر المال.

تطلعت إلى ملابس الراهبة البالية متعجبا، إلا إنها قالت:

- لم أحمل اسم خوري عبثا..

ثم أكملت..

- على أحد ما الذهاب للقاهرة، لدفع النقود، وإحضار سميح لبيروت وحده، يخرج شادن من هنا.. سيفاجأ خوري كثيرا.

هتف بها بسام:

- وهل تسمح حالتها بخروجها من المستشفى؟

قالت لوسي:

- لست أدري.. لكن أعلم أن وجودها هنا سيقتلها.

ثم نظرت إلى فدوى، ويبدو أنها تعلم الكثير، من مصدر ما، خمنت أنه خديجة طاهية القصر..

- وجودك بجانبها بسام سيساعدها كثيرا، فقد هتفت باسمك كثيرا، وهذا ما جعلني آتي إليك.

نظر بسام بحيرة..

- لكن من سيذهب إلى القاهرة؟ الأمر سيستغرق فترة على الأقل.

كنت أتابع حديثهما منصتا، وإذا بثلاثة أزواج من العيون تتجه إليّ.. تنحنحت..

- عليّ أن أقدم إجازة غدا، و..

احتضنني بسام بشدة..

- نعم الصديق أنت.

بينما اغرورقت عينا فدوى ولوسي بالدموع.

أعرف أي عدو سأواجه.. ابتهلت من قلبي ألا يعلم خوري بما سأفعله، فالرجل صعب المراس، شديد الخطورة، ولن يتوانى عن تقطيعي إربا وشي أجزائي بكل مرح.. خفق قلبي على منظر الشواء، وكلاب خوري تنظر.. لكن كل هذا هيهات أمام حرية إنسان، وحياة فتاة.. بالإضافة.. هل هناك من يرفض زيارة القاهرة؟!

القاهرة التي استقبلتني بأمطار رقيقة حالمة، مشبعة بالأمل في الصباح الباكر، بعد يوم من جلستنا هذه. وبمساعدة من دكتور كارم، الذي كان يملك هناك علاقات شتى، استطعت إخراج سميح خلال أسبوع على الأكثر، وحزمت أمري على عودتنا لبيروت على طائرتين مختلفتين، حتى لا نثير الشكوك.

لكن أحلامنا تبخرت تماما، ونحن نقف في المطار، لنعلم بغلق مطار بيروت.. بيروت التي دكها الطيران الإسرائيلي دكا، فصارت أشلاءً، وانقطع اتصالي ببسام. أما سميح، فقد وضع رأسه بين يديه، وقد زاده الهم على مصير ابنته سنوات وسنوات..

انفصام

بسام يروى

آه يا شادن روحي.. هل تأخرت كثيرا؟.. يؤلمني مشهدك خلف الزجاج، غائبة عن الدنيا، ترنو عينيك بنظرة لا متناهية للا شيء. أمنت لي لوسي رؤيتك، رغما عن إرادة العجوز. هو لن يدعك بسهولة.. يفضل أن يضعك جثة هامدة باسم ناتالي خوري، على أن تعودي شادن مرة أخرى. لكن يبدو أن للوسي سطوة عليه، وقد أمدها أمومتها بالقوة لمواجهة الطاغية من أجل ابنتها.

كنت أحدثك كل صباح.. أحكي لكِ قصصا عن حياتي في الناصرة، ثم ذهابي للمخيمات في صبرا وشاتيلا مع أمي وفدوى ونادر.

أخبرتك عن فدوى وأني ظلمتها كثيرا، لكن لا تقلقي سأصحح أخطائي.. لست ملاكًا.

اليوم تلقيت اتصالا من إياد.. أن الأمور تسير بشكل صحيح.. لا تعرفين إياد، ولكنه صديق عزيز، وسيساعدك كثيرا.

سألت الطبيب عنك، فأخبرني إنك في حالة من حالات الانفصام النفسي النادرة، والتي تحدث فقط تحت ضغوط قاهرة.. ولكنك ستعودين يا شادن الصغيرة..سأضرب نادر وغسان، وكل من ضايقك يا صغيرتي.

كنت أحكي وأحكي،وأنت كما أنت، لا تحركين ساكنا، متجمدة في صمتك الرهيب، غارقة في بحر من الظلمات.. تعيشين في مكان آخر بروحك. دائمًا لوسي بجانبك، وغسان يزورك من حين لآخر، ولكنه لا ينبس ببنت شفة.

حينما سرحت لك لوسي شعرك هذا الصباح، تسارعت نبضات قلبي، وطلبت منها أن تعيده للونه الأصلي، ففعلت، ولم تخش غضب خوري البارد. حاولت أن أطعمك بيدي، فلم تستجيبي.. إنني متعب يا شادن روحي.. متعب، والوقت قصير.. سامحيني يا صغيرتي، فقد وعدتك، لكني تخاذلت، وصدقت هراء كونك ناتالي..

أحضرت لك اليوم بعض أزهار الأوركيد البرتقالية، كنت ألاحظ ولعك بها، فلم تهتمي بالأزهار الندية.. جلست بجانبك هذا النهار، وقد اكتسى وجهك مسحة من الحزن.. آه لو طعنوني بألف خنجر، لكان أخف ألمـًا من أن أراكِ هكذا.

اليوم يا شادن هطلت الأمطار على بيروت بشدة.. أمطار غاضبة صاخبة.. هكذا هي بيروت في يناير، ترقص مع المطر، بينما أنت في سكونك صامدة، تمسك لوسي بيدك، تغني لك.

إنها السابعة مساء، وسأذهب. لكن لوسي باقية، وقد أخبرتها إن إياد سيكون في طريقه، هو وسميح، غدا؛ ولكنها همست محذرة أن أخفض صوتي، فدائما هناك نادر يذرع الممر المؤدي لغرفتك.. آه.. كم أود لو أدق عنقه. دائما يدير ظهره لي وأنا أمر بجانبه، ولكن هذه المرة وقفت خلفه في تحدٍ، فاستدار، وقبل أن يتفوه بكلمة، حدث

الانفجار، وارتج المبنى بشدة، وتكسرت النوافذ بعنف، وتطايرت المقاعد والأشياء، وأزيز طائرات مدوٍ.. صرخت وأنا أحتمي بالحائط، وقد تكوم جسدي فوق جسد نادر، الذي أفاق سريعا، وهو يحاول باستماتة الوصول لحجرتك، وأنا في أثره. كنت متكومة هناك، وقد انقلب السرير، بينما لوسي تصرخ ماذا يحدث!!

حملتك يا صغيرتي، وثمة نظرة ملتاعة تظلل عينيك، ورغم الظلام والخوف والألم، وقصف الطائرات العنيف، خفق قلبي بشدة، وأنت تقولين بضعف وحيرة:-

"بسام"..

اختطاف

استيقظت على صوت الارتطام..وجدت نفسي على الأرض الباردة، وصوت عنيف يهز المبنى، وقد تراقصت الأضواء ثم خبت.. ثمة أنين بجانبي، ثم ضوء ضعيف صادر من مكان ما، وصوت ملهوف يصرخ شادن.. همست غير مصدقة..بسام.. رفعني كطفلة صغيرة، وبكى وهو يقول

– آه يا شادن الحبيبة لقد عدت ..

رغم ذهولي مما يحدث، ومن الظلام والبرد، وأصوات القصف، شعرت بالدفء والطمأنينة والأمان.. هناك صوت آخر يهتف:

– لوسي.. لوسي هل أنت بخير؟..

هتف لوسي:

– ماذا يحدث؟ أين شادن؟

فيجاوبها صوت بسام:

– اطمئني إنها بخير

بينما الصوت الآخر، وميزت فيه صوت نادر البغيض يردد:

– بيروت تتعرض للقصف.. لقد فعلها الصهاينة، تبا لهم..

ثم ما لبث أن صرخ..

– بسام ..أين فدوى؟

شعرت بحيرة بسام وخوفه،ولكنه لم يتخل عني، ولم يترلني للأرض، بل قال بكل حزم:

– علينا المغادرة من هنا.. لقد توقف القصف،لكنهم على الأرجح سيعاودون خلال دقائق.

حينما وضعنا بسام – أنا ولوسي، التي قبعت في حضنها– في ملجأ آمن، قال:

– عليّ الذهاب لفدوى.. استطعت مخابرتها، سأحضرها إليكم، ثم علينا الرحيل إلى الشمال. قاطعه صوت نادر، وهو يقول بصوت آمر:

– أرسل غسان سيارة، تصل بعد خمس دقائق، لنقلنا للأردن..إنها أوامره.. علينا ترك بيروت حالا.

رأيت وجه بسام الخائف والحائر بين واجبه نحو فدوى وبيني، إلا أن لوسي قالت:

– نادر.. لا يمكن ترك شقيقتك وابن عمك هكذا.

غص نادر وهو يقول:

– سأعمل على تأخير الرحيل نصف ساعة لا أكثر.. إنها مدة كافية لإحضار فدوى.. عليك المخاطرة بالذهاب، ولكن احترس.. إن البناية التي تقيم بها فدوى لا تبعد كثيرا، لكن عليك بالركض، وتجنب ركوب أي سيارة.

مرت الدقائق كأنها ساعات.. ثمة جرح صغير على جبين لوسي.. شعرت بالألم لها، وبالغضب منها.. سنوات وسنوات وأنت غائبة يا لوسي..كانت تخلت عن رداء الراهبة، وقد التف جسدها الناحل في ملبس بسيط، لا لون فيه سوى الأسود، وقد ربطت شعرها بربطة حازمة. شعرت بتطلعي إليها، فأخذتني في حضنها، وهي تقول:

- حبيبتي..

كانت السيارات السوداء المدرعة قد وصلت.. نظرت لها في خوف، وهم ينتظرون دخولنا، وصوت نادر يطلب منا الصعود.. شدتني بقوة أكبر لصدرها، وهى تقول:

- لن نرحل بدون بسام وفدوى ..

تطلع نادر لساعته، بينما جواله يرن، فيرد:-

سنرحل الآن مسيو خوري.. سنرحل على الفور

اعترضت، وصرخت:

- لا لا لن نترك بسام وفدوى خلفنا..

جذبوني بقوة أنا ولوسي، لنجد أنفسنا في السيارة، ونادر يقف في الخارج، وقائد السيارة يقول:

- هل نرحل الآن؟..

تطلع إليه نادر في حيرة، ثم إلى وجهي الباكي، وفجأة ظهرت طائرات في السماء تضرب بعنف بيروت مرة أخرى، فركب نادر على الفور، وهو يصرخ:

- هيا

انزويت في صدر أمي أبكي باختناق، إلا أن صوت نادر هدر فجأة..

- توقف..

كان بسام وفدوى على الجانب الآخر من الطريق.. إن كنت كرهت نادر منذ لحظات، إلا أني راقبته بعيون تحمل العرفان والامتنان، وهو يقطع الطريق ليحمل فدوى، التي كانت شبه فاقدة للوعي.

مضينا في الليل الممطر، والقصف المدوي عبر الطريق إلى سوريا ثم منه إلى عمان.. كانت صلات خوري القوية تتيح لنا التنقل بسهولة، غير السيارة القوية التي أقلتنا.حيث نمت بعيون نصف مغمضة في حضن لوسي، بينما فدوى ناعسة على صدر بسام..كم شعرت بالغيرة والألم، وصوت الضمير الخافت يؤنبني.

مع بشائر الصباح، كنا في أحد أشهر فنادق عمان، وقد سبقتنا جانيت وتوني عراجي، وبالطبع غسان خوري، الذي زوى بين حاجبيه وهو يرنو لبسام وفدوى؛ إلا أن لوسي قالت بصوت هامس:

- وجودهما ضروري لشفاء شادن

فغمم من بين غليونه، وهو يرقبني بشيء من اللطف:

- لا بأس، طالما الأمر في مصلحة ناتالي.

أدخلتني لوسي للفراش، وسمعتها وهي تحادث فدوى عبر هاتف الغرفة بأن بسام تمكن من الاتصال بإياد، وأنهم سيغيرون وجهتهم

لعمان.. بالطبع لم أفهم شيئا من الحديث، لأنني لا أعرف من هو أياد. في تلك اللحظة إني متعبة، وأحتاج للنوم بشدة.. حلمت أن ثمة شيء خانق على أنفي، شيء يجذبني للظلمات.. ويجذبني

استيقظت على صفعة عنيفة، وضوء الظهيرة الشديد. بدلا من الفراش الوثير، كنت ملقاة على أرض متربة، وبعض التبن. وكأني أحلم أني في إسطبل للخيل.. همست:

– لوسي.. بسام!

نزلت صفعة أخرى على وجهي، وغمرني الماء البارد العفن، لأطالع في ذهول أكثر وجه كرهته في حياتي.. وجه توني عراجي، وقد وقفت خلفه جانيت تهتف في فرح :–

– أهلا بالأميرة.. نثق أن خوري سيدفع الكثير من أجل استعادتك..

كنت مذهولة وضعيفة، لكنى أعلم أنى وقعت في براثن توني، تلميذ خوري، بكل ما يملكه لي من حقد وكره خرج من فمه الكريه، وهو يشدني من شعري، ثم يمرر يده المقرفة على وجنتي:–

– إنك أجمل كثيرا من لوسي.. أتعلمين يا صغيرة أنني سأغتصبك، مثلما فعل عمك بأمك؟.. مازلت أذكرها، حينما جاءتنا منكسرة ذليلة، لتخبر غسان بأمر اغتصابها من شقيق زوجها الأكبر. لقد استمتعت كثيرا بقتل الرجل، لكني أجبرته على حكي التفاصيل، كي أتشفى في لوسي الخرقاء، التي لم تخبرنا بأمرك أبدا.. سأستمتع كثيرا بك يا شادن أو ناتالي..

بصقت في وجهه.. ركلني بعنف في بطني وصدري، ورفعني بعنف وهو يمزق ملابسي وأنا أقاومه.. فجأة تركني، بعد أن أمسكت جانيت بيده، وهي تصرخ:

- توني.. لم نتفق على إيذاء الفتاة.. أخبرتني أننا سنجني المال الكثير من خوري، ثم نرحل لبلد أخرى..

أزاحها بعنف، وهو يتجه نحوي مرة أخرى، إلا أنها تعلقت به في استماتة..

- دعها وشأنها.

نظر لها بسخرية:

- الدم يحن.. أليس كذلك؟..كلكم آل خوري الملاعين.. لست بحاجة إليك جانيت.

قالها وهو يستل خنجرًا، ويضعه في صدرها، ثم نزعه وألقاه في نشوة وجنون، ثم خرج فجأة ينادي رجاله.

نظرت لجانيت وهي تفارق الحياة،وزحفت نحوها بصعوبة..

- جانيت.. اصمدي..

قالت بضعف:

- لا يا صغيرتي .. لا قوة لي.

ثم أشارت بيد ضعيفة لجيبها، حيث وجدت الهاتف الجوال يرن بصمت.. كان صوت نادر.. أخبرته بصوت متقطع،وعيني على جانيت، وقد تكومت وفارقت الحياة، وعيني على الخنجر الملقى..

حينما جاء أحد رجال توني لرفع المسكينة المسجاة، أغلقوا الباب مرة أخرى، واقترب توني مني، وهو يقول:

– لنبدأ حفلتنا يا صغيرة.. حفلة الترفيه عن توني المسكين.. عن ذل خوري له طوال سنوات..

ثم يقول بلهجة مجنونة:

– سأفعل بك مثلما فعل بأمي يوما، لينجبني منها، ثم لا يعترف بي..أمسكني من شعري، وهو يقترب بأنفاسه الكريهة..

– علينا أن نكمل نسل خوري، فالعائلة بحاجة لهذا..

هناك لحظات في حياتنا لا نعرف كيف كنا فيها، ولا نعرف كيف واجهنا مصيرنا، ومن أين أتت لنا الشجاعة..

تماما مثل تلك اللحظة المجنونة، وأنا أغوص بيد المقبض في كتف توني، الذي أصدر عواءً كالكلب، وهو يحاول نزع مسدسه ليقتلني.. ثمة طلقات في الخارج.. وفتح باب الاسطبل بعنف، بينما توني يصوب مسدسه نحوي، لكن نادر أطاح به بطلقة واحدة، وهو يصرخ:

– أريده حيًا.

هرع لي بسام ولوسي، وشخص آخر، عرفت فيه إياد، ووجه آخر حبيب.. وجه أبي وقد جزع، وهو ينظر لوجهي المتورم، وأنا أبكي وأقول:

– حاول توني اغتصابي..

ثم انخرط في بكاء مرير، لم أفق منه إلا على صوت طقطقة عظام، وقد لوى نادر عنق توني في حركة واحدة.. كانت هذه مَن اللحظات القليلة في حياة نادر الناصري، الذي يتغلب فيه صوت الغضب والكرامة على صوت المال.. نادر هو التناقض بعينه.. فبعد قتل توني بلحظات، ها هو يرفع مسدسه في وجه أبي وبسام ولوسي، وهو يقول:

– هيا يا آنسة.. جدك ينتظرك.

كانت الضربة التي جاءته من الخلف قوية، بحيث أنه فقد وعيه على الفور، وقد وقف إياد مدافعا عن نفسه..

– إنه كالثور، لا يمكن هزيمته إلا هكذا..

ثم جس نبضهن وهو يقول:

– إنه بخير.. سيغيب عن الوعي دقائق، وعلينا الذهاب فورا إلى المطار.

كانت فدوى هناك تنتظر، وقد أمنت لنا ثلاث تذاكر للقاهرة، وهي تقول:

– ساعة ونصف، وتقلع الطائرة.

نظرت إليها..

– ولكن أنت وبسام..

نظر الاثنان لي، وقال بسام:

– لا تقلقي بيروت لم تعد تناسبنا.. لن نعود إلى هناك..

لكن بيروت كلها كانت هنا.. حاضرة في نادر الناصري، وغسان خوري، ورجاله المسلحين، الذين أحاطوا بنا في مطار عمان. وقد غص قلبي في شدة وعنف، وأبي يشدني لصدره بقوة، وبسام يترك فدوى، ويقف أمامي في مواجهة من لا يرحم، بينما نمت عينا نادر عن غضب شديد.. كره شديد..

كان الجو متكهرب، والصوت يردد في المطار أن على ركاب الطائرة المصرية المتجهة للقاهرة التوجه للبوابة رقم خمسة.. وقفت لوسي وهى تقول بصوت عنيف:

– وماذا بعد يا خوري العظيم؟ ألم يكفك دماء وموتى؟

فيقاطعها:

– اصمتي

بينما يمسك أبي بيدي، غير مبالٍ بكل هؤلاء، ويقول:

– هيا يا ابنتي.. علينا الرحيل.

– توقف.. إلى أين؟

صرخ به خوري، فصرخ به بسام:

- دع الفتاة وشأنها..

وقد وقف حاجزا بيني وبين خوري، الذي اسود وجهه، وحار في أمره، فقال بصوت ضعيف، وقد التمعت عيونه من فرط الانفعال..

- من قال إني سأمنعها عن الرحيل؟

مازلت أذكر يوم الرحيل.. لقد انحنى غسان أخيرا.لم أنس وهو يلفظ بصعوبة..

- شادن.. تذكري أن لك جدا، وإن كان أخطأ بحقك كثيرا، إلا أنه يحبك، ويرجو أن تسامحيه، وتقبلي بزيارته في القاهرة.

كانت الأربعة أحرف لكلمة شادن صك حريتي وهويتي.. وفي نفس الوقت صك عذابي، وأنا أرى طيف بسام يبتعد، وهو يحتضن فدوى الباكية.

مازلت أرسم في مخيلتي صورة وجهه المتعب، وجبينه المتغضن، وانزوائه بعيدا عني، ولوسي تحتضنني، وتعتذر عن الذهاب معي. لقد وعدني خوري أن يزورني، ووعدتني لوسي أنها ستأتي يوما لتصفية الخلافات مع أبي.

أما بسام، ورغم كل هذا، لم يعدني بشيء، أي شيء.. حتى الوداع الأخير ضن به عليّ.. خذلني وداعه، لأنه ببساطة لم يودعني.. رغم فرحتي بالعودة لمصر ولأبي، ظل جزء بي يترف طوال سبع سنوات.

سبع سنوات عجاف، أحاول أن أتلمس أخباره، أو شيء عنه من لوسي، فلا تجيبني بشيء، وكأنه شبح ظهر واختفى. ولم أحصل إلا على معلومة بسيطة، أن نادر ترك خوري واختفى، وهكذا انقطع أي خيط يربطني بهما.. فدوى وبسام.

سبع سنوات قضيتها في القاهرة، بين أروقة كلية الطب. كنت أبغي أن أصير مثل فدوى.. وقد تزوج أبي، ولكنه طلق زوجته بعد عام.. أخبرني إنه لم يحب سوى لوسي، وأنه لا يعرف سبب رحيلها وعدم عودتها. كنت أحفظ سر أمي، فلا داعٍ لفتح جرح لن ينسى أبدا. ففعلة عمي الشنعاء بأمي، ومقتله على يد جدي أمر لا يمكن سرده هكذا بكل سهولة.. أمر دمر لوسي لسنوات وسنوات، ولن أفتحه مرة أخرى، خاصة وأنا أعلم أنها عادت للقصر، وأنها في السنوات الأخيرة تولت زمام الأمور في مؤسسات خوري.

وهذا الصباح أتاني صوتها، تطلب بصوت حنون أن أجئ على وجه السرعة لبيروت، لأن غسان خوري في النزع الأخير.

هبطت بيروت بصحبة أبي، حيث وجدنا سيارة في انتظارنا، أقلتنا على الفور للمستشفى.. كان غسان قد هزل كثيرا، وصار شخصا آخرًا، يهذي. بينما جلست لوسي بجانبه، وتعلقت عيون أبي بها مرة أخرى، ثم ما لبثت أن صحبته خارج الغرفة، لتتركني مع غسان، الذي برقت عيناه بشدة، وهو يقول:

– ناتالي هل أتيت؟.. ناتالي لا ترحلي.

عند الظهيرة كان قد رحل بكل ما في داخله.. بعشقه الغريب لرفيقة صباه، الذي منعه من الزواج حتى الأربعين من عمره.. بحقده الدفين على سيلين.. بحروبه التي خاضها لتكوين إمبراطورية.. رحل تاركا كل شيء وراءه باسم ناتالي خوري، التي لا وجود لها.

كنت أنهي إجراءات دفنه في المستشفى مع أبي، بينما تركت لوسي معه، حين لمحتها في الممر.. لاشيء تغير فيها.. هي بنفسها، وقامتها الفتية، فدوى الجارحي، وكأن الزمن توقف بي، ولم أصدق عيني، ولم تصدق هي أيضا، لكنها أخذتني في حضنها بسهولة.. كنت أخشى أن تضيع مني.. طلبت عنوانها، ووعدتها بالزيارة في الغد.

في المساء، كانت أمي منغمسة في الإعداد لجنازة غسان خوري، وقد ظننت إنها قوية الشكيمة إلا إنني التقيتها في الردهة تبكي.. أخذتها في حضني وهى تقول:

– أتعلمين شادن.. لقد سامحته.. لقد انهار بعد رحيلك وانزوى.. أصابته علة ما.. لذا تركت الدير، كاد كل شيء ينهار.. رغم أخطائه الفادحة، إلا أن مؤسسات خوري يعمل بها الكثير من البسطاء، وفي بلد مثل لبنان من يفقد عمله لا يجده بسهولة.. لقد انغمست في العمل السنوات الماضية شادن حتى أنسى، وحتى أسامح.. كادت قدماي تقودني للقاهرة، لكني علمت بزواج أبيك.

همست لها:

– هوني عليك أمي.. أبي لم يحب سوى لوسي الجميلة.

غصت، وهي تغالب دموعها..

- لكن ..

مسحت دموعها وأنا أقول:-

- منذ سنوات طلبت مني امرأة طيبة أن أدع الموتى لحالهم، ولكن لم أستمع لنصحها.. تعذبت سنوات وسنوات بما فتحته على نفسي.. اليوم أطلب منك نفس الطلب.. دعي الموتى لحالهم أمي.. دعيهم لخالقهم..

لمحت في عينيها نظرة حائرة، لكن صوت أتى من السلم، حيث يقف أبي، جعلني أترك مكاني له.

جلس بجانبها.. هناك الكثير بينهما، وهما بحاجة لبعضهما.. سنوات تفصل بينهما، وبين الألم، ولديهما حياة جديدة.. من يدرى. كنت على ثقة أن الحب الذي جمعهما يومًا قادرا أن يجمعهما مرة أخرى.

غفوت، وكلي أمل أن ألقاك يا فدوى.. وكلي أمل أن ألقاه.. لن آخذه منك أبدا فدوى.. لكني أريد أن أراه.. مجرد أن أراه.

قادتني إحدى سيارات مؤسسة خوري، التي أمنتها لي أمي إلى إحدى الفيلات الأنيقة، في أرقى أحياء بيروت، وقد كتب عليها فيلا شادن!.. تسمرت على الاسم، ويدي على الجرس، ودموع تغالبني.. لم ينسوني.. رغم السنوات. فتحت لي فدوى، وقد ارتدت عباءة أنيقة تليق بها، وشعرها الطويل يغطى ظهرها.. كم أنت جميلة يا فدوى.. قلتها بقلب شادن الذي أحبها دوما، لا بقلب ناتالي، الذي حقد

عليها. على الدرج، كانت هناك طفلة صغيرة في نحو الخامسة أو السادسة، فأخذتها في حضنها، وهي تقول:

- أعرفك بشادن الكبيرة يا شادن الصغيرة ..

نظرت لها بذهول، حتى بعد أن أعطت الصغيرة للمربية.

كنت أنظر من النافذة للسماء الصافية إلا من سحابات خفيفة مرحة.. بينما تقول:

- هلا شادن.. افتقدناك سنوات وسنوات. كيف أنت؟.. سمعت أنك تخرجت هذا العام من كلية الطب.

جلست، وهى تعطيني كوبا من الشاي، وقلت:

- تتابعون أخباري، بينما لم أعرف عنكم شيئا طوال هذا السنوات. حاولت ولم أعرف.. حتى إياد صديقكم اختفى..

قاطعتني وهى تقول..

- ترك إياد بيروت منذ زمن بعيد، وعاد لسوريا، ولم أعرف عنه شيئا.

هززت كتفي..

- كنتم أصدقاء مترابطين..

قطع كلامي دخول وجه أعرفه.. رحب بي.. دكتور كارم.. قبّل جبين فدوى، وهى ترافقه للباب قائلة:

- في رعاية الله يا زوجي الحبيب.

نظرت لها في ذهول، فأمسكت بمرفقي، وهى تقودني إلى الحديقة الصغيرة قائلة:

- تعالي شادن.. إنك بحاجة لقليل من الهواء.

لم أنطق سوى..

- وبسام.. أين بسام وشادن؟

جاء ردها صاعقا..

- كلا.. إنني وبسام لم نتزوج قط يا شادن.. لقد تطلقنا بعد ذهابك بنحو شهر.

قاطعتها بملامح مذهولة..

- وشادن الصغيرة، أليست ابنته؟ إن الشبه كبير!

أمسكت يدي كأم حانية.. لطالما كنت حانية علي يا فدوى الحبيبة.. أكملت ما غاب عني بصوتها العذب كهمسات المطر..

- لقد غادرنا بيروت بعد رحيلك بقليل مع د كارم..

تنحنحت..

- في الحقيقة أن حالة بسام السيئة هي ما دفعتني للرحيل به للقاهرة، فقد كان يجوب شوارع بيروت الخاوية ليالٍ طويلة.. لم يطق الحياة هناك دونك، وقد هزل كثيرا، وخشيت أن يلقى حتفه.. كان يحبك بجنون شادن.

ضحكت بمرارة..

- كان يعرف أنني في القاهرة.. هو من توصل لأبي.. لماذا؟.. كان من السهولة أن يصل إليّ لو كان يشعر بشيء ما نحوي.. لكنه لفظني في المطار، كأني مصيبة نزلت على رأسه، ووجب التخلص منها.. ما تقولينه مستحيل.. أعلم أنه شعر نحوي بالتعاطف.. لكني لم أعرف أبدا كيف يقاتل من أجلي، حتى يكاد يخسر حياته، ثم يلفظني هكذا.. أنت لا تعلمين كم من دموع بكيت، حتى أني جففت كل ينابيع المطر بداخلي.

أغمضت عينيها، والدموع تترقق بهما.

- لم يكن يستطيع شادن.. قضى ليالٍ طويلة وأيامًا يذهب حتى يراك دون أن تريه.

هتفت بها:

- لماذا..؟ هل هو واجبه نحوك؟ لم يكن بينكما شيء سوى بين الأخت والأخ.. كنتما تحيراني كثيرا. لاحظت تعلق د كارم الشديد بك إبان مرضك، ولاحظت ولعك به.

قاطعتني وهى تقول:

- كان كارم خطيبين قبل أن أعقد قراني على بسام.

نزعت يدي من كفها..

- اخبريني فدوى بالله عليك.. إذا لم تكوني تحبينه، فلماذا تزوجتِه؟ لماذا فسخت خطبتك قبلا من كارم، ثم عدت إليه؟.. أي

عبث هذا!.. ولم رضى بالعودة إليك؟.. هل تظنون يا آل الجارحي إنكم فوق البشر؟

هتفت:

- اهدئي شادن.

قاطعتها بطلقات كالرصاص:

- وأين هو بسام الآن؟ لماذا يصمت الجميع عندما ألفظ اسمه؟

أمسكتها بعنف، وقد أعمى الغضب بصيرتي..

- سبع سنوات عجاف أمضيتها.. سبع سنوات أبعث له مئات الرسائل، فلا مجيب.. هل تعرفين.. منذ أربع سنوات تملكني الحنين، فذهبت لعمله أبحث عنه، قالوا إنه ترك العمل لديهم منذ سنوات.

خبطت بيدي..

- هل كنتم أحلام مطر، وتسربت في الرياح، وجففتها آشعة شمس حارقة؟

كنت غاضبة وحانقة..

- أين هو بسام؟..

وقد أمسكت كتفها بقوة، هزمتها بكلمة..

- إن بسام ميت شادن.. ميت منذ سنوات.. لم يمنعه عنك سوى الموت.

قبعت في حضن فدوى بعد انهياري، وقد عصف الذهول والجدب.. علمت أنه أصيب قبل أن أظهر في حياتهم بسرطان الدم،

وأن فدوى بدافع الإخلاص له تركت خطيبها، بعد أن كذبت على بسام بأن لا أمل بينها وبين كارم.. وعقدت قرانها حتى يتسنى له أن ينجب طفلا يحمل اسم عائلة الجارحي. لكن الأحداث كشفت أن بسام جنى على ابنة عمه.. وقد جاءوا للقاهرة حيث تزوجت فدوى وكارم، وساءت حالة بسام خلال العام الذي عاشه في القاهرة.

قالت فدوى:

- كان يتابعك ويقابل أباك.. خشي كثيرا أن تنتكس حالتك بعدما مررت به.. كان يعلم أنك تحبينه، ولم يرد أبدا أن يسبب لك بمرضه وموته أي ألم.

كانت دموع فدوى تنهمر وهي تقول:

- ولدت شادن قبل رحيله بشهر، وفي يومه الأخير أتيت بها إليه، وقلت: " تشبهك كثيرا يا ابن عمي"

فترقرقت عينيه بالدموع، وهو يوصيني بشادن روحه..

كان يوصيني بك شادن.. أنا وكارم لم نتخل أبدا عنك.. لكننا خشينا كثيرا أن تعلمي بموت بسام، فآثرنا أن نبقى بعيدا.. سامحيني يا حبيبتي.. والله إني أحبك، لأني أرى حب أخي بسام فيك.

غفوت في الظهيرة لمدة ساعة، وقد تورمت عيني من البكاء.. لكنه أتاني في الحلم، وقد تهدلت خصلة شعر سوداء ناعمة على جبينه.. مددت يدي أزيحها، فابتسم، وغاب وسط الغيم الوردي.

- استيقظي شادن..

كانت فدوى تحمل كوبا من الليمون البارد، تقبلته منها شاكرة.. ثم نهضت، وارتديت حذائي، فقالت

- ابقِ للغذاء ..

جاوبتها دون انفعال، وأنا أنظر للسيارة التي تنتظرني..

- أريد أن أزور قبره، فهل تصفين المكان؟..

- كلا.. سآتي معك

لم نكن أنا وفدوى هناك وحدنا.. بل وقف بقامته المهيبة.. كيف لم أتبين أن له نفس قامة بسام.. أعني به نادر الناصري.. وقف عند قبر بسام، وقد ذهلت فدوى لوجوده وهتفت:

- نادر!

نظر إليها بسرور، وهو يقول:

- فدوى لم أرك منذ سنوات..

ولعلها أول مرة يأخذ نادر أخته في أحضانه، وقد انخرط كلاهما في البكاء.. ثم ما لبث نادر أن أزاح شقيقته برفق..

- أهلا شادن..

لم أمد له يدي.. لم أغفر له.. مازال بيني وبين التسامح سنوات وسنوات، وقد تقبل الأمر بهدوء، وهو يأخذ فدوى جانبا، وهي تقول:

- أين كنت؟

فيقول:-

- عدت للديار.. للناصرة ..إني آتي كل عام لأزوره..

تلاشى صوته، وهما يمضيان بعيدا عني عبر الشواهد، لعلهم يعالجان ما بينهما.. بينما جلست وحدي على قبر الراقد العظيم، وثمة رذاذ مطر حالم يندي القبر الرخامي البارد.. مسحت بيدي الندى عن النقش، الذي كتب عليه:

"بسام مروان الجارحي من الناصرة ١٩٧٢-٢٠٠٣".

تنفست الهواء البارد، وأنا أتذكر ليلة القصف.. لقاء الحديقة.. ترتيله القرآن الكريم.. ضحكه على اللحم النيء.. شجاره مع نادر.. وعده أن يعيدني للقاهرة.. دمه النازف من أجلي ..نظرته الأخيرة في مطار عمان.. وخلف كل هذا عبارة تترد بقلبي:-

"اسم جميل شادن.. لقد درست أعواما في القاهرة:

بينما صورة وجهه غير الحليق وهو نائم تحتل ذاكرتي..

تنهدت بأمل، وثمة طائر يرقص مغردا فوق رأسي، وقد علا صوته بالغناء، فدمعت عيني، وقد عادت فدوى لتحيطني بذراعها، بينما سقط المطر غزيرا غزيرا.

